الهجرة إلى جهنم

رواية

د. أحمد كمال عباس

الهجرة إلى جهنم
المؤلف: د. أحمد كمال عباس

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : أغسطس 2017
رقم الإيداع : 2017/17058
الترقيم الدولي : 978-977-769-189-5

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

الإهداء:

أولادي وأحفادي:

أتمني أن تعيشوا عصورا غير التي عشتها، عصور الحرية والديمقراطية، عصورًا خالية من العنصرية.

(ورأى الرب ذلك غير حسن)

آية غير موجودة في الكتاب المقدس

- 1 -

أحمد

مر الوقت بطيئا، تلفت حولي مستطلعاً المكان، محاولاً أن أجد أي بقعة ظل أقف فيها لأتقي حرارة الشمس، التي بدت وكأنها تتبعني أينما أذهب منذ أن رافقت صديقي مودي هذا الصباح من ثلاجة الموتى بمستشفى الدمرداش إلى كنيسة الأقباط الإنجيليين بحي الظاهر حيث أقف الآن، الصحيفة التي أستعملها للوقاية من سقوط أشعة الشمس مباشرة فوق رأسي لم تعد تجدي، قميصي المبلل بالعرق التصق بجسدي وأنا أروح وأغدو أمام باب الكنيسة منتظراً الانتهاء من الصلاة على الأستاذ سمير، اضطررت أخيراً للوقوف سانداً ظهري على عمود الإنارة الموجود أمام الكنيسة مستأنساً بظله الذي بالكاد حجب أشعة الشمس عن جانب وجهي الأيسر وأتقى ما بقي مكشوفاً من رأسي بالصحيفة، كان بالجريدة خبر استفزازي، طويت الصحيفة وأنا أقرأه لتصير شمسية، يقول الخبر: «خطاب

الرئيس مرسي يثير جدلا بين القوي السياسية، المعارضون: صدمة للثوار، والمؤيدون: قطع الطريق أمام المزايدين»، سيجعل الإعلام مرسي – هذا المسخ – حكيما للزمان كعادة الإعلام المصري منذ أول عهده.

راقبت الشارع الممتلئ بالكنائس، فهذه لجماعة الإنجيليين، والأخرى للأرثوذكس على أول الشارع، وثالثة للكاثوليك في شارع مجاور، نظرت إلى رفيقي في الشمس، عم عبده فراش المصلحة فوجدته في حالة كرب من الحرارة، تحدثت مع عبده محاولا أن أخفف عنه معاناته ولكي نتناسى سويا حرارة الجو:

ـ شوف مصر إزاي عظيمة يا عم عبده!

ـ إزاي؟

ـ الكنايس جنب الجوامع ومفيش مشكلة، وزمان كان في يهود لحد ما جم بتوع يوليو وطردوهم.

لم يرد عبده وتركني أسترسل:

ـ وبعد كده ربنا بلانا بالرئيس المؤمن السادات، وبقي المسيحيين والمسلمين يتشاكلوا مع بعض.

قطع عبده حديثي، وكان العرق يكسو وجهه وسألني ببراءة:

ـ مش كنا دخلنا الكنيسة يا باشمهندس أحسن من الحر ده.

كنت قد استبقيت عم عبده حين لمحته قادما لأداء الواجب في وفاة

الأستاذ سمير، فطلبت منه البقاء معي، ابتسمت لعم لعبده:

ـ ادخل إنت يا عم عبده .. أنا ما بحبش أدخل كنايس.

ظهرت الدهشة على وجه فراش المصلحة، فتح فمه ثم علق على كلامي:

ـ مع إنك مش سلفي يا باشمهندس.

ـ أنا ما بحبش أدخل أي دور عبادة يا راجل يا طيب.

قطب الرجل جبينه وتركني دون كلام وتحرك تجاه الكنيسة، نعم.. لا أحب أن أدخل دور العبادة، ليس لإلحادي ولكن هربا من سخافة رجال الدين، الشيوخ والقسيسين معا، أراهم جميعا تجارًا يغشون البضاعة لبيعها للبسطاء، لم أغضب من رد فعل عم عبده .

ألقيت سيجارتي التي أشعلتها منذ قليل، فقد لمحت ناسًا يخرجون من الكنيسة يحملون نعشًا، يبدو أنه نعش الأستاذ سمير، تحركت في هذا القيظ الذي لم تر القاهرة مثله، طالعت الوجوه، شباب خرج متحمسا وكأنه انتصر في معركة تحرير القدس يحملون نعشا، وجوههم منتشية ومبتسمة، تعارضت مع جلال الموت وهيبته، فوجئت بحماة صديقه «أبله الناظرة» تنظم الصفوف وتعطي التعليمات وكأنها جنرال عسكري ينظم صفوف جنوده، تساءلت في نفسي «ما الذي جاء بها إلى هنا؟».

بدا أن هناك مشكلة، هل صدقت توقعاتي؟ دهشت عندما رأيت

زميلتنا في العمل نانسي، التي خرجت أيضا منتشية، المفترض أن تكون حزينة، سمير ابن خال والدتها وابن خال الناظرة، تري ماذا حدث؟ أخذت أنظر للصفوف، أجهدت عينيّ بحثا عن صديقي، حاولت التعرف عليه من خلال قميصه الأزرق الداكن ولكنه تاه في بحر من الزرقة، وكأنما جميع الحاضرين قد ارتدوا الملابس الزرقاء اليوم.

تحرك جيش النعش بقيادة الجنرال الناظرة حتى دخل كنيسة مجاورة للأقباط الأرثوذكس، اقتربت أكثر من باب كنيسة الإنجيليين، أخيرا لمحت مودي صديق عمري وجاري في شبرا وزميلي في العمل مقطبا وجهه غاضبا، تحول وجه مودي من البياض إلى الاحمرار دلالة على غضبه، تكاد الدموع تنزل من عينيه، كان شعره الناعم الداكن الأسود غير مرتب، تعرفت على القس الإنجيلي الشاب بالملابس غير الكهنوتية يتكلم مع مودي، فقد سبق أن التقيت القس من قبل في فرح شقيقة مودي، لمحني مودي، فهرع إلى مستنجدا وصرخا في وجهي:

- هو احنا كفرة؟

فوجئت بحالة الغضب التي انتابت صديقي فأردت المداعبة فابتسمت مازحا للتخفيف عنه:

- آه كفرة ما هو أنا ماركسي وإنت نصراني زى ما بيقول علينا

أخويا الشيخ محمد.

تراخت عضلات وجه مودى المشدودة ولاحت شبه ابتسامة على وجه، وعرفت أن سلاح الدعابة نجح في تهدئة صديقي.

لمسني مرفق مودي مشيرًا إلى الحاجة إلى التحرك من قيظ الظهيرة إلى جنة تكييف السيارة، فما أحوجنا إلى التكييف.

انطلقنا عبر الشوارع والأزقة الملتوية إلى حيث صف مودي سيارته قبل ساعتين، عندما لاحت السيارة لنا بحث مودي في جيبه وأخرج مفتاح السيارة من جيبه اليمين حيث يضعه دائما، ومد يده إلي، أخذت المفتاح واتجهت إلى مقعد القيادة، كان هناك تفاهم بيننا فعندما لا يرغب مودي في القيادة فإنني عادة ما أتولى القيادة، واليوم مودي ليس على ما يرام، أكيد ما توقعته أمس وما حذرته منه حدث.

انطلقت بالسيارة باتجاه وسط البلد، وبالرغم من القصر النسبي للمسافة إلا أن الشوارع مزدحمة، الناس راغبون في الهروب من هجير الظهيرة إلى ظل البيوت، يوجد في داخل رأسي أسئلة عديدة عن جيش الجنازة، ولكني احترمت صمت صديقي وشغلت نفسي بالتركيز في القيادة، عندما وصلنا قريب باب اللوق بحثنا عن مكان لصف السيارة بأحد الشوارع الجانبية، ثم انطلقنا باتجاه بار الحرية حيث اعتدت أن أجلس مع رفاق الدرب.

ها هو البار بكراسيه وعامليه وزبائنه الدائمين، وعلى باب البار

التقيت بأحد الأصدقاء وسلمت على آخرين داخل البار بسرعة حتى أتفرغ لمودي، وانتقيت طاولة منزوية في نهاية البار حتى أخلو بصاحبي فأفرج عنه بعض ما يشعر به من ضيق، أطل علينا وجه عم إسماعيل الأسمر ذي الابتسامة الواسعة التي تكشف عن أسنان طالها الدخان والشاي فصبغها بدرجات الأصفر والبني، أومأت إليه بصباعين وقال:

ـ ستيلا.

ردد عم إسماعيل الطلب بصوت جهوري سمعه كل من بالبار:

ـ اثنين ستيلا مثلجة وصلحه.

وعندما اختفى عم إسماعيل بعدما وضع الدور الثاني من زجاجات البيرة على الطاولة التي تفصل بيننا، سألت مودي:

- إيه إللى حصل؟

- مفيش حماتي وبنت اختها شايفين إن احنا كفرة.. صلاتنا وكنيستنا متنفعش.. فخطفوا جثمان الأستاذ سمير.

طلبت منه الهدوء حتى أستطيع فهم ما حدث، ذكرني مودي بطلب سمير على فراش الموت ووصيته بالدفن والصلاة في كنيسة الإنجيليين.

- آه ده حصل من يومين .. لما كنا عند الأستاذ سمير في المستشفى.. لما طلبك.. وبالإمارة مراته كانت موجودة.

شرح لي مودي أنه بعد انتهائهم من أداء صلاة الميت، فوجئ بهجوم الجنرال الناظرة، بمعاونة رئيس الأركان المهندسة نانسي، وخطفوا الجثمان، تساءلت في حيرة عن السبب، تناول مودي كوبًا آخر، وأجاب في حسرة:

- لما راعي الكنيسة سألها بكل ذوق واحترام..

- اللي كان بيكلمك ده؟

- آه.

- قالت له إيه؟

- ردحت له زي الناس الشلق.

- بصراحة أنا مش عارف حماتك دي مربية وناظرة إزاي؟

شرح مودي لي كيف أهانت حماته مشاعرهم، وادعت أن صلاتهم على الميت لا تنفعه، وأصرت أن عدم الصلاة من قبل أهل حماته ستقف عقبة أمام دخول سمير الجنة، ابتسمت قائلا:

- عبث.

- فين محبة المسيح؟

- اهدأ يا صاحبي.

- دول كذبوني لما قلت لهم على وصية الأستاذ سمير.

- ومراته؟

- للأسف خافت من حماتي زى ما خافت قبل كده لما غيروا

مذهبهم.

- يا ريت مرقص كان هنا.

- علشان زيك؟

- لا هو ملحد من أصول قبطية وأنا ماركسي من أصول إسلامية.. تفرق.. بس الدكتور الوحيد اللي بيعرف يتعامل مع أمه.

- معاك حق .. أشكر الرب إن مريم مكنتش هنا.

دخلت مجموعة من الشباب الكافيه، بنتان وولد، كلهم في عمر الجامعة، وجوههم ما بين الأبيض والأسمر الفاتح، لهم ملامح مصرية، متفائلون، مبتسمون، واتجهوا إلينا، بالطبع رحبت بهم، مع أن مجيئهم في الوقت غير المناسب، تجاهلهم مودي، بدا لي أن مودي ليس لديه عزم على المجاملات، سألتني علا:

- إيه إلى جايبك هنا يا رفيق الصبح؟

- أهلا علا، واخد النهاردة عارضة.

- تبرجزت وبعت القضية وبتشرب كل دي بيرة.

ضحك الأصدقاء، رددت لهم الاتهام:

- زي ما إنتم جيتوا.

- إحنا بندور على هيبة وممدوح .. لمحناك قاعد.

- ما تقعدوا.

- لا هانروح نكمل نضال في الندوة الثقافية .

- طيب احتمال أحصلكم هناك.

انصرفت مجموعة المناضلين، تابع مودي الشراب، أمسكت منه الكوب، فقد شرب كثيرا:

ـ كفاية يا صاحبي شربت كتير!

ـ من همي.

حاولت أن أدير دفة الحديث كي أخرجه من أجواء المشكلة:

- شفت الرفاق؟

تجاهل مودي كلامي وواصل بأسي وحزن وتساءل:

- هو إحنا وحشين كده ليه ؟ أمال ثورة ومظاهرات على الفاضي!

- ما هو إنت بتتكلم سياسة أهو؟

- للأسف الثورة أخرجت أسوأ ما في الشعب المصري.

- الشعب المصري أغلبه جمهور فاشيست بعد ما شال مبارك راح انتخب فاشي في جمعية سرية دينية.

- بلاش كلام الشيوعيين المجعلص الكبير ده

- لا مش كلام كبير ولا مجعلص .. دي الحقيقة.. وخلي بالك .. الموروث الديني إسلامي أو مسيحي سبب مهم في حالتنا ديه .. ودلوقت أي حد ما بيتفقش مع التاني في الرأي ممكن يموته .. ده علشان الاختلاف السياسي .. شوف بقي لو الاختلاف ديني؟!

ابتسم مودي بسبب ردي، أعلم أنه غير مسيس، لم يذهب إلى

التحرير إلا في أواخر الفعالية قبل سقوط مبارك بيوم:

ـ عمرك ما بتنسي قضيتك، يا بختك عندك اللي شغلك، وتحارب علشانه.

ـ وإنت عندك خطيبتك .. ربنا يخليكوا لبعض.

ـ أنا مش عارف إزاي مريم بنت المتوحشة دي!

ـ حماتك عاملة زي العسكري الأزرق في الفيلم القديم.

ـ ومريم زي نسمة حلوة في ليلة صيف.

ـ يا سيدي يا سيدي!

اقترحت على مودي عدم العودة إلى البيت والذهاب إلى مقهى الندوة لمقابلة الرفاق، حتى يتناسى ما حدث، وكي نحتسي قهوة حتى نستطيع الذهاب إلى المنزل.

- 2 -

موري

ذهبنا إلى مقهى اليساريين ووجدنا البنتين والشاب، عرفهم أحمد علي، لم أتبين أسماءهم إلا بصعوبة، بالإضافة إلى علا كان هناك أميرة وهاني، وقد تملكني الغضب، ليس الغضب فقط ولكن الإحساس بالهوان، نعم الهوان، فعندما تأتي الإهانة ممن تحب يكون الألم أشد.

كنت أسمع أصوات الرفاق وهم يتحدثون، ولكني كنت شاردًا تماما، حتى أنهم لاحظوا ذلك ولكنهم احترموا صمتي، كان عقلى تائها إلى أن انتبهت على حركة بين الرفاق، فقد دخل الصحفي اليساري المعروف الأستاذ صبري فهمي المقهى واتجه إلى حيث نجلس، بالطبع لم أسمع به من قبل، ولكن أحمد أخبرني عنه حين دخوله، رحب الرفاق بصبري، كان النقاش بينهم ساخنا، حول ثورة يناير، وكيف يتخلصون من الإخوان، طالبهم صبري بالتحالف مع الجيش، بل والتحالف مع عناصر مبارك مبررا ذلك بمنطق:

- الإخوان هايرجعونا 14 قرن .. العسكر هايرجعونا 70 سنة للوراء.

ردت علا وهي مستفزة:

- ده إيه التنظيرة العجيبة دي يا أستاذ؟

ثار صبري، محذرا من الاستهزاء برأيه، منبها على وجوب احترام تاريخه النضالي، أقعده أحمد على الكرسي، طالبا منه الهدوء وقال محدثا الآخرين:

ـ بالراحة يا رفاق .. وجهة نظر الأستاذ صبري وجهة نظر يساريين كتير .. خاصة في توتو.

بدا الامتعاض على وجه صبري من اسم توتو، فتدارك أحمد الموقف:

- لا مؤاخذة يا أستاذ صبري .. قصدي حزب التجمع .. وأول واحد متبني الفكرة دي الدكتور رفعت السعيد.

- هاتتكلم على د. رفعت كمان يا أحمد؟

تدخلت علا في حدة:

- يا سلام هو بقي المرشد ولا من الصحابة مينفعش ننقده .. ولا علشان بتكتب في جرناله.

أمسك أحمد بذراع صبري حتى لا يغادر .. وشرح رؤيته:

- محدش يقدر ينكر تاريخك ولا تاريخ الدكتور يا أستاذ صبري

بس.

- بس إيه؟

- إحنا بنتكلم على المستقبل والحاضر والماضي القريب .. الشباب دول هم المستقبل.. إنت وهو ما شتركتوش فى ثورة يناير، واتهمتونا إن إحنا شوية عيال متهورين.

- وكلامنا طلع صح .. البلد هاتبقي خومينية.

- وإنت عاوز ترجع العسكر .. أنا مش فاهمك يا أستاذ صبري!

جاء صوت هاني من آخر الطاولة موجها كلامه لصبري:

- أنا مش عارف إنت ماركسي إزاي؟

فجاوبه صبري بحده وانفعال:

- أنا مسمحلكش.

ابتسم هاني بسخرية وواصل هجومه على صبري:

- تقدر تقولي جيلك عملوا إيه؟ يا إما في الصحافة بياكلوا عيش.. يا إما في مراكز حقوق الإنسان بياكلوا عيش برضه، والمحترم فيكم ساكت.

هب صبري واقفا صارخا:

- دي قلة أدب.

- ولما قامت الثورة كنتم ضدها وكنتم مع الإخوان في الانسحاب من الميدان وتسليم البلد للمجلس العسكري.

واصل هاني هجومه:

ـ قال إيه البرجوازية تكمل مهامها لحد ما بقيتم ديول للأمن.

اقترب صبري من هاني وازداد هياجه وصراخه:

- لا .. مش قادر استحمل سفالتك دي.

قام هاني ممسكا بخناق صبري:

- أنا ساكت لك من الصبح .

تجمع الناس حول الخناقة، خلصوا صبري من هاني بعد أن نال عدة لكمات في وجهه، سال الدم من أنف صبري، الذي صرخ في وجوهنا وهو في طريقه إلى الخارج:

- آخر زمن لما يبقي في رفيق اسمه هاني، قال هاني قال.

تحرك صبري للخارج والتفت برأسه للخلف ساخرا:

- على كده اسمك الحركي هايبقي إيه؟ سوسو

قذفه هاني بزجاجة مياه فارغة أصابت رأسه، ضحك الشباب ساخرين من صبري.

بالطبع بدت علي البلاهة، لم أفهم شيئا من النقاش، ليس بسبب حالتي النفسية ولكني لأنني عكس صديقي لا أفهم في السياسة، ما فهمته أن هناك خلافا بين مجموعتين من الرفاق حول مرحلة ما بعد مرسي، لو سألت أحمد سيسهب في الشرح فهو مخلص لقضيته، كما أن مرسي يبدو جالسا لفترة طويلة .

لا أنكر أنني استمتعت بالمعركة، وكأنني ألفت المعارك والشجار، أو ربما انتصار الشباب على الصحفي العجوز عوضني عن هزيمة النعش.

في طريقنا للعودة، غيرت فكري وقررت أن أناور مع أحمد وكأنني سياسي قديم لعلي أتناسي ما حدث لي اليوم، فأثرت موضوع الأستاذ صبري، فهب أحمد مدافعًا عن رأيه ورأي جماعته:

- ده راجل انتهازي.

- ده رأيه وهو حر فيه.

- لا مش حر .. لما يتكلم باسم اليسار يبقي مش حر.

- فيك يا أحمد شيء من حماتي.

ابتسم أحمد ولم يغضب من المقارنة:

- في الظاهر معاك حق .. بس إنت متعرفش الخلفيات دول كانوا مع أمن الدولة ضد الثورة .. ودلوقت عاوزينا نرجع عسكر يوليو.

- هو إيه أصل الخلاف بينكم؟

- أصل الخلاف اختلاف الفريقين في تفسير الماركسية.

لم أرد، حاولت أن أداري ابتسامتي، واصل أحمد شرحه بحماس:

ـ هما شايفين إن البرجوازية ما قامتش بمهامها زي ما عملت في أوروبا، علشان كده لازم الثورة الجاية تكون ثورة برجوازية تؤسس دولة ديمقراطية مدنية.

ـ وإنتم بالطبع عاوزينها ثورة حمراء.

ـ بص فاكر لما كنت بقولك إن الراجل العجوز هايقع وكنت بتضحك عليا، وقلت لك الشعب هايجي يوم يثور وكنت بتتريق؟!

ـ فعلا مكنش حد مصدق إن الشعب المصري ممكن يثور.

ـ الشعب المصري ده شعب عظيم .

ـ أمال المشكلة فين؟

ـ المشكلة في اللي زي صبري بيزيفوا وعي الناس، زيهم زى مشايخ الإخوان.

رددت بتلقائية لأنهي النقاش:

ـ أنا عارفك على استعداد للنقاش شهر من غير تعب وهاتتوهني في تفاصيل كثيرة.

ـ شكلك ارتحت.

ـ نشكر الرب!

صمت أحمد وواصلت حديثي:

ـ هاقترح على مريم إن احنا نسافر أي حتة .. نروح أي بلد خليجي .. الإمارات مثلا.

ـ وهتوافق؟

ـ أكيد .. كفاية أقولها إن أمها هاتقول لعيالنا إن أبوهم كافر مهرطق.

ابتسمت، وسألني أحمد عن سبب ابتسامي:

ـ زى ما صبري مثلا يشتمك ويقولك يا برجوازي.

لم يغضب أحمد وتعامل مع الجملة كأنها دعابة، اقتربنا من المنزل وإذا به يقول لي:

ـ بص .. أهلك زمانهم مستنيين يعرفوا إيه اللي حصل.

صمت، فاسترسل أحمد:

ـ لما نوصل البيت ادخل إنت أوضتك وسيبني أحكي لهم اللي حصل.

ـ هاتأنبهم؟ أكيد لإنهم ماسمعوش كلامك.

ـ اللى حصل حصل خلاص .. بس علشان المواضيع ما تتصعدش.

وصلنا الشقة، حيث اتجهت إلى غرفتي بينما اتجه أحمد إلى الصالة حيث يوجد والداي.

- 3 -
أم أحمد

دائما ما يصدق حدس قلبي خصوصا تجاه المشاكل، عندما أخبرني ابني أحمد عن ظروف وفاة مديرهم الأستاذ سمير، شعرت بقلبي ينقبض، ودعوت الله أن تمر الجنازة على خير، انتظرت في منزل جارتنا أم مودي عودة مودي وأحمد.

عندما حضر الشابان كانت وجوههما تنبئ بالأخطار، اتجه مودي إلى غرفته وجلس أحمد معنا، ثم حضر والد مودي ليعرف، قص علينا أحمد ما حدث، رد والد مودي:

- يا ريتنا سمعنا كلامك يا ابني.

- اللي حصل حصل يا باشمهندس .. المهم مودي دلوقتي.

سألت والدة مودي أحمد :

ـ هو دلوقت مودي عامل إيه؟

بدت والدة مودي أصغر مني، رغم أنها أكبر بكثير، فحياتها أكثر

راحة بينما طالما عانيت في هذه الدنيا، وابتلاني الزمان بنوائبه، أندهش من وجه الشبه بينها وبين موسى زوجها كلما طالعت في وجهيهما، ورغم علمي بعدم وجود صلة قرابة بينهما إلا أنهما يبدوان شقيقين، حتي إن كلاهما نفس الوزن تقريبا.

رد أحمد بثقة:

- لا .. كويس عن الأول .. أنا أخدته فسحته وقعدنا في قهوتين .. شرب بيرة كتير .. بس دلوقت كويس.

- شكرا يا ابني ما انت أخوه.

ابتسم أحمد، وشعرت أنا بالفخر أنني والدته، نعم لديه حكمة الرجال ولولا تعلقه بالسياسة لأصبح رجلا مثاليا، هاهو ولدي البكر ينتزع إعجاب جيراننا.

نبه أحمد عليهما:

- بكرة الصبح هانزله بدري .. ولو في حاجة حضرتك كلموني على طول.

انصرفنا أنا وأحمد، وتركناهما صامتين، وهما ينظران باتجاه حجرة نوم ولدهما الوحيد والحيرة على وجهيهما.

صعدنا أنا وولدي سلالم العمارة لنصل إلى السطح حيث شقتنا الصغيرة التي بناها زوجي الراحل بيده عندما كان حارسًا للعمارة، وساعدته أنا في بنائها، مازال قلبي مقبوضا يحدثني بشر، دعوت الله

في نفسي:

«استر يا رب»

أبدلت ملابسي لتجهيز طعام العشاء وفوجئت باعتراض أحمد:

ـ يا أمه حتى في البيت اسود!

ـ عايزني ألون يا أحمد بعد المرحوم؟

ـ آه وفيها إيه؟

ـ افرض حد زارنا من البلد يقولوا على باتغندر!

ـ يا أمه محدش بيجي من ساعة عزا أبويا ما خلص مشفناش حد فيهم.

نعم لم يأت إلينا أحد من أهلي أو أهل المرحوم، ليس لأنهم لا يعرفون الواجب أو أنهم يكرهوننا، ولكن لأن بؤسهم دفعهم لتركنا لمصيرنا، وحتى أنهي النقاش:

ـ أنا برتاح في الاسود.

دخلت المطبخ الصغير حتى أجهز طعام العشاء، ذكرني أحمد بوفاة زوجي، تحملت بمفردي مشقة تعليم الولدين، عملت كحارسة للعمارة بالإضافة إلى خدمتي في البيوت، كما ساعدتنا أسرة مودي كثيرا، كان موسى يشتري الملابس لأحمد ومحمد مثل مودي ويرفض إعطاءهما ملابس مودي القديمة حتى لا يشعران بالنقص، فقد كانوا زملاء في نفس المدرسة، الحمد لله أثمر تعبي بولد مهندس

وآخر محاسب:

ـ قال أقلع الأسود قال .. ميعرفش إن الاسود أرخص .

ساعدني أحمد كعادته في إعداد الطبلية، دخل محمد علينا فجأة:

ـ السلام على من اتبع الهدي!

ـ وعليكم السلام .

داعبه أحمد:

ـ حماتك بتحبك .. اقعد كل معانا!

وعلي غير المعتاد جلس محمد، كان محمد يشبه أخاه في الملامح، كلاهما قمحي اللون، ولكن محمد مفتول العضلات منذ التحاقه بالجماعات الجهادية، كما أن له لحية مهيبة يخافها من في الشارع، ويرتدي دائما الجلباب الباكستاني القصير.

تحمل أحمد بمفرده مصاريف المنزل، وأراحني من العمل، منذ أن تخرج، أما محمد رغم انتعاشه الاقتصادي بفضل الإخوان لم يكن يساهم بجنيه في المنزل.

كان العشاء بسيطًا؛ عدس وسلطة، داعب أحمد أخاه:

ـ ده تواضع منك يا اخويا والله.. تسيب المحمر والمشمر وتاكل أكل الغلابة .. بس خير ليه ماتعشيتش مع الأخوة يعني؟

ـ قلت آكل معاكم.

ـ بالهنا يا ابني.

لم يرد محمد على تلميحات أخيه، وسألني:

ـ أنا عديت من شوية مكنتيش موجودة يا أمه!

ـ أصل كنت عند ناس مودي.

ـ خير؟

قصصت له ما حدث ويا ليتني ما قصصت، ويا ليتني ما أنهيت حديثي بالدعوة إلى صلاح حال مودي، فاعترض محمد على الدعوة لكافر:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»

وبصوت مسموع حتى ينهي أي نقاش قال :

- صدق الله العظيم.

لم يلتفت أحمد إليه ولم يعقب فهو يعلم أن النقاش مع أخيه عبثي، لن يجني منه سوى الشجار وإغضابي، شكرني أحمد على العشاء وقام، قبل رأسي، حاولت أن أجعله يجلس ليتناول مزيدا من الطعام ولكنه حاول طمأنتي قائلا:

- شبعت يا أمه .. الحمد لله.

ولكني أعلم أنه حزين لكلام أخيه .. وما إن ذهب أحمد إلى غرفته حتى عاتبت محمد متهمة إياه بعدم فهم الإسلام وبالتطرف، مذكرة

إياه بالماضي.

ـ لولا والد مودي اللي بتقول عليه نصراني مكنتش إنت ولا أخوك اتعلمتوا.

فوجئت بأن صوته ارتفع:

ـ أنا تعبت من الأسطوانة دي.

ـ يا ابني ما اقدرش أنكر جمايل الناس .. ده دين علينا .. ده موسى كمان ساعد أخوك في شغله.

ـ ما ابنك اللي ابتدي الكلام.

ذكرته بقصة اليهودي الذي كان يؤذي النبي برمي القاذورات على عتبة باب منزله، وكيف أن الرسول ذهب للسؤال عليه عندما انقطعت القاذورات لمدة يومين فوجده مريضا، كنت قد سمعت هذه القصة في أحد الدروس الدينية التي أحضرها، ازدادت ثورة محمد في وجهي:

- ربنا اللي بيقول مش أنا.. لا تتخذوا من الكفار أولياء.

- وربنا قالك تزعق في امك.. وبعدين وأخوك من الكفار علشان تسمم بدنه وتخليه ميكملش عشا.

- يعني حرمته من المحمر والمشمر زي ما بيتريق .. ده عدس.

- مدام مش عاجبك العدس بتاكل ليه؟

- أنا فعلا غلطان إني قاعد مع كفرة.

كفرة!! نهايتها أن أصبح انا وأحمد كفرة، كيف أكون كافرة وأنا أحافظ على صلواتي وصيامي، وعلي طاعة الله فيما أمر ، ولو كان معي مال لكنت قد أديت فريضة الحج، لقد أديت العمرة بفضل ولدي الكبير الذي حرم نفسه ليقتطع من راتبه حتي أؤدي العمرة ، لأنه علم مدى اشتياقي للكعبة ولزيارة الرسول، بعد كل هذا يتهمنا هذا الأهوج بالكفر!

تصاعد الغضب في نفسي، وأخذت صينية الطعام من أمامه، فوجئت بأنه ضرب الصينية من على يدي فتطاير الطعام على الأرض، فصفعته بالقلم على وجهه وأنا في قمة الغضب:

ـ اطلع بره .. إنت ولد عاق!

فثار علي صارخا:

– إنت مش كافرة وبس .. ده إنت باين عليك اتجننتي كمان.

خرج أحمد من غرفته عندما اشتد الصياح، فوجد الطعام مبعثرًا على الأرض وأنا أبكي، ومحمد ثائر، وازدادت ثورة محمد عندما رأى شقيقه:

– خلي الشيوعي ينفعك .. أنا هامشي.

– استني بس يا محمد.

مسك أحمد يد أخيه بقوه، ولكن محمد نزعها بسرعة، سار أحمد وراءه محاولا تهدئه، ولكن محمد خرج مغلقا باب الشقة بعنف، لاعنا

المسيحيين والشيوعيين وغباء المسلمين.

حاول أحمد تهدئتي:

ـ صلي ع النبي يا أمه .. ده شيطان بينا .. دلوقت محمد يروق ويرجع!

قصصت على أحمد ما حدث، أبي أن أنظف المكان، ناولني كوبا من الماء، طلب مني أن أذهب لأتوضأ وأصلي ركعتين لله حتى أهدأ، أحضر خيشة وجردلا به ماء، رمى باقي الطعام المقذوف على الأرض في كيس ووضعه في القمامة، وأكمل النظافة بالمسح بالماء.

نظرت له بدهشة، كيف يكون هذا كافرا، نعم هو لا يصلي ولكنه يصوم، كثير من الشباب بل ومن الكبار لا يصلون، نعم كانا مختلفين منذ الصغر، كان أحمد لا يخجل من مساعدة والده وبعد ذلك مساعدتي في القيام بمهام حراسة العمارة من تنظيف وتلبية طلبات للسكان، رغم زمالته لمودي بالمدرسة، بينما كان محمد دائم الشكوى لأنه كان دائم النظر إلى ما في أيدي غيره، وبعد وفاة زوجي بثلاث سنوات، وفي أول سنة جامعية له أطلق محمد لحيته وارتدى زى الإسلاميين الموحد، نعم كانت هناك مناوشات مع أخيه الأكبر الذي ارتبط بالتيار الماركسي، وكنت دائما أحاول الإصلاح بينهما لكي لا يغضب أحدهما، لا أدري ما هي الماركسية، سمعتها هكذا من أحمد ومحمد، صورها لي محمد أنها كفر بواح، وصورها لي أحمد أنها الدفاع

عن الغلابة والمستضعفين، لا أدري من أصدق، ولكني أعلم أن ولدي البكر بقلبه حنية ليست فقط لي ولكنها تسع العالم كله.

أنبت نفسي، اليوم لم أستطع أن أتحكم في مشاعري بعد أن تعدى محمد كل الخطوط الحمراء، أنا أمقت التعصب ولا أرى له سببا، أردد دائما:

«كلنا بنعبد ربنا».

كما أن مكانة أسرة مودي في قلبي كبيرة، فأنا لا أنسى جميلهم أبدا، وصداقة ولدي البكر بمودي، الذي لم يفارقه لا في المدرسة ولا الجامعة ولا حتى العمل زاد من ارتباطي بأسرة مودي .

قررت أن أصلي ليذهب الرجس عن أهل بيتي، وعلى سجادة الصلاة، رفعت كفي للسماء ودعوت الله متذللة لولدي محمد بالهداية وشعرت بالراحة بعدها تسري في جسدي.

طويت سجادة الصلاة، وفوجئت بدق عنيف على الباب، لقد أتي صبي المكوجي ليخبر أحمد بأن شقيقه في عراك مع شخص آخر، نزل أحمد بسرعة، دعوت الله أن يكشف عنا هذه الغمة:

ـ يا رب!

- 4 -

نظيرة

قص لنا أحمد ما حدث لوحيدي مودي من قبل حماته، أثنينا عليه، ابتسم قبل أن يرحل هو ووالدته وكأنه يلومني ويذكرني بسنوات الجفاء بيننا، حين كنت أخشى على مودي من الانخراط في السياسة.

الحقيقة أن أحمد لم يحاول أبدا جذب مودي إلى آرائه السياسية، احترم الجيرة والصداقة، كنت - رغم حبي لوالدته واحترامي لكفاحها - أعامله بطريق سيئة، ولطالما عارضني موسى زوجي قائلا:

ـ أحمد ده واد محترم مش معقد زى أخوه!

ـ وأنا بحب أحمد والرب .. بس خايفة على ابني الوحيد منه ..أحسن يورطه في حاجة!

نعم لم يخجل أحمد وهو يحضر الطلبات لنا في عهد أبيه أو في عهد أمه كحارسين للعمارة، حتى شاخت العمارة وصارت بلا حارس بعد أن هرب منها كل الحراس لرفض الجيران زيادة الراتب، وزميله

مودي في المدرسة ثم صديقه في اللعب جالس في حجرته، عكس أخيه محمد، الذي كان يتأخر في إحضار الأشياء، ويتكلم بصورة فظة جعلتنا نتجاهله.

أثبتت الأيام صدق كلام زوجي وخطأ حساباتي، شعرت بالشاب وهو فعلا يحب ولدي، فكان لزاما علي أن أغير معاملتي له.

تغيرت العلاقة بيني وبين والدته من علاقة حارسة للعمارة بأحدى السكان إلى علاقة صداقة حقيقية، فهي رغم اعتزازها بنفسها إلا أنها دائما ما تذكرني بما تسميه أفضالنا عليها، وهي – وإن كانت شديدة التدين إلا أنها غير متعصبة، تجاملنا في الأعياد، وتأكل طعامنا من غير تأفف كما يفعل بعض المسلمين، كما أنها – وهذا هو الأهم – تحب مودي وحيدي كثيرا وتعتبره ابنها الثالث.

جلسنا صامتين أنا وزوجي، ناظرين إلى حجرة مودي، ولكن الكلمات ضاقت في صدري، فلم أحتمل السكوت:

ـ قال إيه صلاتنا متنفعش ! الوثنيين دول ولاد الكلب!

ـ اهدي يا نظيرة.

ـ قال على رأي المثل : رضينا بالهم والهم ما رضيش بينا.

ـ يا ريتنا سمعنا كلام أحمد امبارح .. وكنا طلعنا مودي بره الموضوع.

– المسيح يبارك له أحمد ده.

يبتسم زوجي موسى قائلا:

- ما كان وحش في الأول يا نظيرة.

ـ كنت خايفة من السياسة.

صمتنا فواصلت أدافع عن رأيي:

ـ وبعدين كان ماله مبارك كان حامينا.. مش أحسن من الإخوان؟!

ـ حرام عليك ده البلد باظت في عهده.

ـ مش أحسن من دلوقت.

ـ وهو أحمد واللي معاه هم اللي جابوا مرسي؟!

ـ سيبك من السياسة وقولي هانعمل إيه في الولية المفترية الناظرة؟

ـ ولا حاجة هانسيب مودي هو اللي يتصرف.

لم أستطع السكوت، صرخت:

ـ دي قالت علينا كفرة مهرطقين.

ـ وطي صوتك مودي يسمعك.

ـ وثنية بنت الكلب.

دق جرس الباب، وجدت أم أحمد في حالة فزع، صرخت:

ـ الحقوني!

سمع مودي صوتها فجاء مسرعا، قصت علينا ما حدث، سألها:

ـ أحمد تحت يا طنط؟

ـ أيوة يا ابني.

ـ خلاص أنا نازل ألحقه.

ـ بلاش يا ابني .. أحسن يشبك معاك محمد.

ـ مش هاينفع أسيب أحمد لوحده.

انتابني الخوف، ولكني لم أستطيع أن أتكلم احتراما لمشاعر جارتي، خشيت من رد فعل محمد تجاه مودي، ما أسهل أن يقتله ليظفر بالحور العين في الجنة، حاولت أن أتماسك، دعوت الرب في سري أن ينجي مودي.

خرج مودي إلى الشارع، وخرجت أم أحمد إلى السطح لتستطلع الأحداث، اشتكيت لزوجي:

ـ نخلص من الوثنيين يطلع لنا الشيخ محمد!

– الواد ده طول عمره بلطجي.. بجد أنا مش عارف البطن اللي تجيب أحمد تجيب محمد إزاي؟

ـ ادعي الرب يا موسى معايا يحفظ مودي.

ـ آمين .. يحفظ مودي وأحمد.

تذكرت أواخر أيام المظاهرات، بعد سقوط مبارك وتغير حالة مودي، إنصاته الشديد لفيروز، سرحانه، همساته مع صديقه أحمد، انعزاله، يومها اشتكيت إلى موسى:

ـ ده بيسمع فيروز!

ـ طول عمره بيحب فيروز.

ـ لا .. بيسمعها زيادة .. وكمان هيمان معاها.

- يمكن بيحب.

- طب يقول .. واحنا نخطبها له.

- منعرفش إيه الظروف .. اطمني إنت بس.

- طب يتكلم.

- لو كان عاوز يتكلم كان اتكلم.

- أسأله؟

- اوعي يا نظيرة.. وسيبي ابنك .. ده مهندس وراجل.

كان يوم سقوط مبارك يوم شؤم علينا، فهو اليوم الذي تعرف فيه مودي بمريم، التي وصمتنا والدتها اليوم بالكفر.

تذكرت أيضا يوم أن رضيت على أحمد، شاهدته وهو يحتضن مودي بحب، حين علم أحمد بموافقة مريم على مودي، يومها طالبني مودي بتأجيل تفاصيل علاقته بمريم ورضخت لطلبه.

في يوم آخر فوجئت بمودي وهو في قمة السعادة، وافقت والدة الفتاة على الخطوبة، دهشت وسألت نفسي:

«هو في حد ممكن يرفض ابني؟»

قص علينا مودي قصة عشقه من البداية، من لحظة سقوط مبارك حتى رضاء الناظرة، ومساعدة أحمد له، وتدخلات زميلته نانسي، أبديت بعض التحفظات:

ـ وفيها إيه .. ما اختك متجوزة أرثوذكسي؟!

ـ هما أصلهم متدينين شوية.

- حماتك باين عليها صعبة.

- بس تبقى حماتي وكله يهون.

أسكتتني هذه الملاحظة وأخرستني، فلقد أدركت مدي حب مودي لفتاته، فلم أسترسل في الكلام وتمنيت له التوفيق، رغم انقباض قلبي، لم أر مودي متلهفا على شيء من قبل أبدا، أبديت مخاوفي لزوجي:

ـ مش عارفة قلبي مش مرتاح للجوازة دى.

ـ هو حر يا نظيرة .. دي حياته هو مش احنا.

كتمت ما في قلبي، وها هي الأيام تقر بصدق توقعاتي.

- 5 -

أحمد

بعدما اصطدم محمد بأمي خشيت نزولي وراءه فهو قد يهينني أمام الناس، كما أن حالة أمي النفسية سيئة جدا، كانت منهارة تماما،، ولكن ما باليد حيلة لا بد من النزول الآن.

جريت خلف صبي الكواء، حاولت أن أحتوي الموقف فلم ينلني إلا ضربات من الجانبين، لم أفهم سبب المعركة، فكلا الشابين ملتح، ومن ذوي الجلباب الأبيض، رأيت الدم ينزف من أنف شقيقي ومن الشخص الأخر، هرب الطرف الآخر متوعدا بالعودة والانتقام:

ـ سأراك قريبا يا شيخ محمد فالأيام دول!

ـ اذهب إلى الجحيم أنت وجماعتك.

«آه .. هذا خلاف بين الأخوة كرامازوف».

هكذا قلت في نفسي، وهكذا كنت أصفهم، لو طال حكم الإخوان لنشبت الحروب بين فصائل التيار الإسلامي السياسي كله، تماما مثلما

حدث في أفغانستان.

افترق الجمع رويدا، حاولت الصعود بشقيقي إلى المنزل لعلاجه فرفض، أتى مودي عندما سمع أصوات الشجار، وباستهزاء من محمد إلى :

- أدي النصراني جالك.

وانفلت محمد من يدي مغادرا الشارع، وهو يصيح غاضبا ومهددا الجميع وسط تعجب أهل الشارع من أسلوب الشيخ محمد، اندهشوا واستنكروا أقواله وأفعاله، فكلهم يعرفون مودي، وكلهم يحترمونه، وكلهم يعرفون الصداقة القوية التي تجمعنا .

تساءل مودي عما حدث، فلم أخبره بشيء، فأنا فعلا أجهل سبب العراك، وانبري بعض الأهالي بالإشادة بي وبأخلاقي وباستيائهم من تصرفات أخي.

انتهزتها فرصة للاحتكاك بالجماهير، ألقيت عليهم خطبة أنبتهم على انتخاب الإخوان، وطالبتهم بالتصدي لتجار الدين، رد على عم رضوان بائع الكتب المستعملة:

ـ كنا فاكرينهم بتوع ربنا طلعوا زي بتوع مبارك!

رد عم عثمان بائع الحلويات:

ـ مفيش حاجة اتغيرت .. الغلا زي ماهو .. والفساد زي ما هو!

عاجله عم رضوان بسخرية:

ـ الفساد بقي شرعي بدقن.

غمغم بعض الناس بالموافقة ، وتفوه البعض بأقوال مشابهة، لا أدري هل فعلا اقتنعوا أم أنهم فقط سايروني، أعتقد أن الناس قد كشفت التيار الإسلامي كله.

لاحظت بوادر انفراجة على وجه مودي، لا شيء يذكره بغزوة النعش الصباحية، وصعدنا معا إلى شقة السطح حتى أطمئن والدتي على حال شقيقي، وأقسمت لها أن إصابات محمد طفيفة، وأن الرجل الآخر هو من أصيب، وعدتنا أمي بكوب من الشاي، وذهبت لإعداده، وجدتها فرصة للحديث مع مودي.

انفردنا في حجرتي المتواضعة، حجرة صغيرة مترين في ثلاثة أمتار، بها سريران صغيران على جهة اليسار، ومكتب صغير عليه جهاز كومبيوتر قديم بعض الشيء على جهة اليمين، ولكنه جهاز فعال، أكثر ما يميز الحجرة هو ذلك الخليط العجيب من الكتب، الموجودة على رف فوق المكتب وكذلك على الأرض، كتب ماركسية وكتب دينية متشددة، دائما ما أثار مودي اختلاط العناوين في الكتب ما بين ماركسية وسلفية، وما إن جلس مودي على السرير حتى فجر قنبلته في وجهي:

- بفكر أهاجر.

- إيه؟

ـ مش هاينفع أعيش مع مريم في وجود أمها وبنت خالتها ..

هايتعبوني.

- ومريم هاتوافق على الهجرة.

- لو بتحبني هاتوافق.

- والإمارات؟

- اللي يوديني الخليج يوديني أمريكا أحسن.

دخلت أمي حاملة صينية شاي، فحملتها منها:

- خد الشاي ولو أنت متستهلش تعب الحاجة.

نظرت لي أمي مستهجنة قولي، فأخبرتها نبأ الهجرة فسألته بسرعة:

- أهلك عرفوا؟

- لا لسه .. ولو إن والدي هايرحب بالفكرة طول عمره كان بيلح على علشان أهاجر وألحق بأختي.

- يا ابني ده كلام .. أبوك وأمك كبروا ومحتاجينك.

تركتنا أمي، فسألت مودي وأنا في حالة دهشة:

- إزاي غيرت رأيك كده؟ وانت كنت بتقول أمريكا جهنم.

- إنت اللي كنت بتقول.

- وانت كنت مقتنع .. وبتقول مش عاجبك حكايات أختك في أمريكا.

- الظروف اتغيرت .. ودلوقتي مفيش حل تاني غير أمريكا.

ازدادت دهشتي، تحولت أمريكا من جهنم إلى حل وحيد، غدا ترفع

الأقليات في مصر شعار «أمريكا هي الحل» سألت مودي:

ـ أنت كلمت لانا أختك؟

ـ لا

ـ يعني ما بعتتش دعوة جديدة.

ـ لانا ملهاش دعوة بالموضوع ده خالص.. أنا تعبت خلاص من العيشة هنا .. ومش لاقي حل غير الهجرة.

صمتنا، سرحت وشردت، أفكر في حل لهذه المعضلة، قاطع مودي سرحاني:

- ما لك؟

- بفكر في موضوعك.

- سيبها وهي تفرج.

- فاكر أول مرة شفت مريم يا مودي؟ كنت فرحان إزاي؟

- ليه بس بتفكرني؟

- ليه .. هو أنت نسيت؟

قام مودي، بدا لي أنه غاضب، اعتذرت له :

- مقصدش .. خليك قاعد.

- لا .. أنا عاوز أقعد مع نفسي.

ـ أقعد بقي ما تبقاش غلس.

ـ فعلا محتاج أقعد مع نفسي.. محتاج أفكر.

- 6 -

موري

طمئنت الوالدين على أحمد، قصصت عليهم عراك محمد في الشارع، سألتني والدتي:

ـ شكلك أهدى!

ـ نشكر الرب.

تركتهم وذهبت إلى غرفتي.

جلست على سريري أستعيد ذكرياتي، عدت إلى يوم 2011/ 2/ 11 يوم سعدي وهنائي، أو بمعني أدق ما ظننته أنه يوم سعدي، ليس فقط لسقوط الطاغية العجوز مبارك، ولكن لأنني رأيتها أول مرة، كنت في الميدان، أستمع مع غيري إلى خطاب اللواء عمر سليمان وهو يعلن سقوط مبارك، هاجت الحناجر وارتفعت الأعلام، أخيرا سقط الكهل العجوز بعد أن تخطاه عزرائيل، كان معي صديقي أحمد وشقيقه محمد الذي كان يتعامل معي بود في تلك الأيام ولم يعلن كفري بعد رغم

سلفيته، فقد قربت الثورة شتات المصريين، وكما قال صديقي أحمد: «القوى الثورية وغير الثورية اجتمعت في الميدان.. خلعوا جميعا انتماءهم الأيديولوجي حتى يسقط العجوز.. ثلاثون عاما يحكم مبارك.. شاخ النظام.. وانهار مشروع التوريث».

رغم أني لم أشارك في الثورة إلا متأخرا، عكس صديقي أحمد الذي شارك من بدايتها، بل وأعد لها، وعكس محمد الذي شارك فيها بعد أن صمد الثوار في الميدان إلا إن مشاركتي غيرت مجري حياتي كما غيرت الثورة مجري حياة المصريين.

تذكرت حالتي ساعة رؤية مريم، كأني رأيت ملاكا من السماء، تسمرت عيناي عليها، ابتسمت، وأخذت أردد في نفسي «هي حبيبتي»، فقد رأيتها بقلبي، نورا يهتف رافعا علم مصر (تحيا مصر)، حاولت أن أصل للنور وجدته اختفي، دق قلبي سريعا مرتين، مرة عندما رأيتها والأخرى عندما اختفت، كانت الفتاة قد تاهت مني وسط ملايين المصريين الذين احتفلوا بسقوط التوريث.

لاحظ أحمد ومحمد توتري، فأخبرتهم عن الفتاة، سخرا مني، خاصة محمد الذي طرح إمكانية أن تكون الفتاة مسلمة، انزعجت بشدة من هذه الفكرة ودافعت عن قلبي:

- دي مش محجبة.

- وإيه يعني؟ الميدان مليان شيوعيات وعلمانيات تبع أخويا أحمد.

- قلبي بيقولي غير كده.

كتمت مشاعري داخل قلبي، واظبت على الذهاب إلى الميدان، لعلي أرى النور مرة أخرى ولكني لم أجدها، كانت القوى الظلامية من تيار ديني وقيادات عسكرية تخلي الميدان من جماهيره، لم أهتم كعادتي، عكس صديقي أحمد، الذي خاض معارك عديدة للبقاء في الميدان، ولكن الناس خذلته وانتصرت للظلاميين، ابتسمت لحال صديقي المناضل ولشرحه لي وللناس عن أهمية الاستمرار في الميدان، كنت أتوق للبقاء في الميدان ليس بسبب الثورة ولكن حتى أراها مرة أخرى.

بدأ محمد ينفصل عن شقيقه وعني، انتهى شهر العسل الثوري، وبدأ عصر خطف الثمار، طلبته جماعة الإخوان فلبي النداء، وبدأت المشاحنات بين الشقيقين، وعاد وصف محمد لي بالنصراني، كما كان يصفني أيام سلفيته ونحن في الجامعة وقبل الثورة.

كان أحمد يحدثني عن الخيانة، خيانة التيار الديني للثورة بالتحالف مع رجال الحكم أملا في الفوز بجزء من الكعكة عند إجراء الانتخابات، وكنت أحدثه عن فتاتي التي أشعر أنها نصيبي، دهش أحمد من شعوري الجارف:

- ده أنت مشفتهاش إلا مرة واحدة!

- مش بإيدي .. قلبي بيقول لي هاشوفها تاني .. وإنها نصيبي وقمستي.

ولكني لم أرها في التحرير مرة أخرى، ومرت أيام وشهور، بحثت عنها حول كنائسنا لم أجدها، وبحثت عنها حول كنائس الأرثوذكس فلم أجدها أيضا، لم أدخل أي كنيسة فقد انقطعت عن دخولها منذ زمن، شاهدتني نانسي وأنا أحوم حول إحدى كنائسهم، وحتى لا تظن بي الظنون قصصت عليها أمري، لتجدها فرصة للسخرية منه بعد فشل دعوتها لي للارتداد عن مذهبي والدخول في مذهبها، قلل أحمد من سخريته ضد تجربتي احتراما لمشاعري ولكنه طالبني بنسيانها، فأنا لا أدري عنها شيئا، لا اسمًا ولا عنوانًا ولا ملة.

استمرت معاناتي حتى قابلتها مرة أخرى في مظاهرات يوم الغضب القبطي، هاتف داخلي دفعني للاستجابة إلى دعوة أحمد لحضور الفعالية السياسية، كانت الأحداث ساخنة، الأقباط غاضبون بسبب هدم كنيسة في المريناب بأسوان، طوق الجيش المكان، بدأ الضرب، سادت الفوضى والهرج المكان، حرق المتظاهرون سيارات للجيش، جاء الشيخ محمد من بعيد يقود مظاهرة سلفية هاتفة «إسلامية إسلامية».

في أثناء هروبي من الضرب لمحت فتاتي، رقص قلبي وابتسمت لها رغم دخان القنابل المسيلة للدموع ورغم أصوات الرصاص، واطمأننت أكثر عندما شاهدت الصليب يزين صدرها، حاولت أن أصل إليها إلا أنها تاهت مني في هذه المعركة، حاولت العثور على صديقي أحمد ولكن كان صديقي مشغولا مع الثوار في تنظيم الصفوف لاستمرار

الفعالية، لعنت في سري الأمن الذي أضاع فرصة التعرف على الفتاة، فاندفعت غاضبا أهتف مع غيري بسقوط المجلس العسكري.

كانت فرحتي بعد أن هدأت الأحداث فرحتين، رؤيتي للفتاة وتأكدي من أنها مسيحية، بينما كان أحمد غاضبا من التعامل الأمني والإعلامي مع غضب الأقباط:

ـ الإعلام بيحرض الناس عليكم يا مسيحيين.

شعرت بالسعادة فصمت ولم أرد على أحمد، فواصل حديثه:

ـ مش كفاية الناس اللي ماتت واللي اتعورت بسبب الأمن.

طالبت أحمد بالهدوء، ونصحني هو بالتريث وبالإقلال من الفرح لأنني لا أعرف عنها شيئا ومصر بها ملايين من المسيحيين:

- بس أنا حاسس إني هأقابلها تاني .. وهاتجوزها.

- ده حب بقى من نظرة واحدة .. لا .. من نظرتين.

لم أرد على مداعبة أحمد، واستمريت في البحث عن الفتاة، فتاة المظاهرات كما أسماها أحمد صديقي، ولكن أين أجدها، قررت العودة إلى البحث في داخل الكنيسة رغم عدم اعتيادي الذهاب إلى هناك، مما أثار دهشة والدي ودهشة باقي أفراد الطائفة، ولكن أحمد نبهني إلى شيء هام:

- إنت بتقول إنها كانت لابسة صليب.

- آه.

- أغلب طايفتكم ما بيلبسوش صليب .. حتى في بيتكم مفيش صليب .. ولا صورة للمسيح.
- كلامك صح.
- مش يمكن تطلع قبطية؟
- إزاي؟
- أرثوذكس يعني.

ساءني رأيه ورددت على صديقي :

- حتى ولو.. أنت ناسي إن أختي متجوزة أرثوذكسي.
- ممكن يبقي فيه فرق بين تفكير عيلتكم وعيلتها.
- ألاقيها الأول وبعدين نشوف.

مرت الأيام والشهور وفي أواخر يوليو من عام 2012 ذات يوم عادي ممل بالنسبة إلي، أيقظتني والدتي كالعادة، وكالعادة كان والدي يقرأ صحيفة أمريكية متباهيا بحضارتها، متذكرا زيارته لابنته ورغبته الشخصية بالبقاء في أمريكا لولا رفضي البقاء فيها، وأثناء إفطارنا حضر أحمد كالعادة للذهاب إلى العمل، وكالعادة عاملته والدتي بسوء خوفا من اهتمامه بالسياسة، كان والدي رغم ميوله الغربية معجبًا بأحمد ويحترم ثوريته.

وكالعادة في العمل لم أستمتع بحديث زميلتنا نانسي ولا مناوشاتها مع صديقي أحمد، لقد مللت كل شيء، وطال انتظاري لفتاة المظاهرات،

ولا توجد أي بادرة للعثور عليها، لم تستمر المناوشات بين نانسي وأحمد كثيرا، فهي مشغولة بالإعداد لزفافها بعد شهر، فقط سألته :

- رحت إمبارح التحرير ونصبت الريس ولا لا؟

- ما أقدرش .. لأنه صعب يمثلني.

أراحت الإجابة نانسي، ظهر ذلك على وجهها، قللت حدتها وابتسمت، ودعتنا للحضور إلى الكنيسة والنادي، فرحب أحمد بالحضور إلى النادي واعتذر عن حضور إلى الكنيسة، ولم أؤكد أو أرفض حضوري.

وبينما أتناقش مع أحمد في العمل، حدثت المعجزة، جاءت فتاة المظاهرات يتقدمها عم عبده فراش المكتب، أجلسها على كرسي أمام مكتب نانسي، والتي كانت قد ذهبت تستأذن من الأستاذ سمير للذهاب لشراء بعض مستلزمات الزفاف.

قفزت صارخا حين رأيتها:

- هي يا أحمد .. هي.

اندهشت الفتاة الجميلة من تصرفي، كانت في أواخر العشرينات، ترتدي فستانا أصفر أنيقًا ضيقًا، أبرز جمالها الجسدي، وإن كان وجهها مدورًا كالقمر لا يحتاج إلى ما يبرز جمال جسد صاحبة هذا الوجه، وضعت على وجهها القليل من مستحضرات التجميل فزادته بهاء، حادثتها قليلا وسط ابتسامات أحمد، جاءت إجابتها ابتسامات أو

إيماءات بالرأس وضنت علي بقليل من الكلام، جاءت نانسي وعرفتها علينا:

- الأستاذة مريم بنت خالتي .. مدرسة تاريخ .. أوعي حد يكون ضايقها يا شباب.

- معقولة؟!

كان هذا ردي المقتضب، كانت إطلالتها المفاجئة قد ألجمت لساني، فقط كنت أنظر بإمعان إلى وجهها وكأني أستكشفه، سحرتني ابتسامتها، شعرت مريم بنظراتي فحاولت أن تتجنبها بالنظر إلى الأرض.

كانت نانسي تريد الخروج بسرعة، فالوقت يداهمها، واستعانت بمريم للذهاب إلى وسط البلد لشراء احتياجاتها، لم أتكلم في المكتب ولا في السيارة إلا عن مريم، سألني أحمد:

- هاتعمل إيه دلوقت .. لازم تتكلم معاها .. يمكن مخطوبة أو مرتبطة.

- إيدها فاضية من غير دبل.. بس كلامك صح .. يمكن تكون مرتبطة بحد.

ابتسم أحمد لكلامي:

- بس خللي بالك .. عاوزين فكرة تتعرف عليها بعيد عن نانسي .. إنت عارفها مزعجة أوي.

- صح .. بس إزاي؟

جلسنا نفكر إلى أن وصلنا عمارتنا بشبرا، كان الحل عند أحمد:

- أكيد مريم في صفحة نانسي على الفيس.

استبشرت وابتسمت ابتسامة انتصار وكأنني ربحت مليار دولار.

- نانسي معاك على الصفحة؟

- لا.

- خلاص هاتلاقيها فى صفحتي .. وورينا شطارتك يا عم مودي.

رأيت الدهشة على وجهي والديّ من تغير حالتي، فقد ذهبت بوجه وعدت بآخر، طلبت منهما تأخير غدائي فلدي مهمة مقدسة، وجدتها على الفيس، أرسلت لها رسالة أستأذنها بطلب صداقة معرفا بنفسي، استجابت لي، حدثتها طول الليل بل وطول الشهر، حكيت لها عن نفسي، عن الثورة، عن شقيقتي المتزوجة قبطيا، عن سابق رؤيتي لها، عن بحثي عنها، عن سخرية أحمد بي، سألتني:

- إنت شيوعي؟

- لا .. ليه؟

- أصل نانسي قالت إن صاحبك شيوعي وأنت مش متدين.

إنها تهتم بي، هكذا فكرت، لقد سألت عني نانسي، كنت في قمة الفرح، استمرت اللقاءات بيننا على الفيس حتى أدمنا نحن الاثنين الحديث معا، فاجأتها برغبتي في التقدم إلى أهلها:

- إنت مش مستعجل كده؟
- أنا بدور عليكي تقريبا من سنتين .. كده أبقى مستعجل.
- طيب .. اصبر على أنا شوية.

قصصت لصديقي ما حدث، فاحتضنني مباركا لي، شاهدتنا والدتي وعلمت أن هناك فتاة ما في حياتي، ولكني طلبت منها إرجاء التفاصيل حتى أحدد متى سأتقدم لها، قررنا أنا ومريم أن نتقابل في فرح نانسي بعد أن تمهد لأهلها عني.

- 7 -

مريم

لاحظ مرقص توتري في الأيام الأخيرة، ومرقص الشقيق الأكبر والوحيد لي، اختصاصي في العظام، لا يشبهني مطلقا، فهو بدين، ورغم وسامته إلا أن وجهه صارم رغم ضحكه المستمر، وزاد شاربه من إظهار صرامة وجهه، ظهر عليه كرش الأربعينيات، كما أنه غير متدين إطلاقا، بل يجاهر بعدائه للمسيحية ولكل الأديان، كان على علاقة متوترة مع والدتي، فقد تمرد عليها ولم تستطع السيطرة عليه، بالإضافة لشعور والدتي بالخزي من تصرفاته وعلاقاته النسائية المتعددة، أما علاقته بوالدي فهي باهتة غير واضحة المعالم، احتفظ مرقص فقط بعلاقة جيدة معي، يحبني جدا، ليس فقط لأنني أخته، ولكن وكما هو يقول «مؤمنة غير متعصبة»، فرغم أنني خادمة في الكنيسة، إلا أن رد فعلي حين أعلن إلحاده كان إيجابيا:

– هو حر.

حاولت أن أعيده إلى طريق الإيمان ولكني فشلت، كان صلبا في مقاومة محاولتي، فكففت عنها رغم حبي لأخي، لم أتردد أن أخبر أخي عن مودي، اعترفت له أنني أميل إليه، وأنه طلبني للزواج ولكني خائفة من رد فعل والدتي، مذكرة إياه بما فعلته مع قريبها الأستاذ سمير:

- إنت فاكر لما الأستاذ سمير حاول يغير مذهبه ماما ونانسي عملوا فيه إيه؟

- أمك زعيمة عصابة تنفع مكان بن لادن.

ضحكت واعترضت على إهانة والدتي:

- مرقص عيب .. بس تخيل ماما ممكن توافق إني أتجوز إنجيلي؟

- لا.

- مع إن أخت مودي متجوزة أرثوذكس وعايشين في أمريكا.

- هو اسمه مودي؟

- هاتعمل إيه؟

- سيبي الموضوع ده عليا.

طمأنت مودي بأن أخي تدخل وأنه كفيل بإقناع والدتي:

- ما تكليمها إنتي يا مريم.

- مقدرش.

- ليه؟

- أصلك متعرفش ماما.

توترت الأجواء في منزلنا عندما سمعت أمي من مرقص أن ابنتها خادمة الكنيسة سيتقدم لخطبتها شاب إنجيلي .

ثارت أمي ثورة عارمة علي، ولكني قررت المواجهة لأول مرة في حياتي، صرخت أمي كيف سترتبطين بمهرطق؛ ليس لديهم قسيس، ولا اعتراف، ولا أسرار كنسية، ولا يعترفون بالقديسين، ثم أضافت:

- وكمان دول شايفينا وثنيين بنعبد الصور والتماثيل .

تدخل مرقص في النقاش :

- ده صحيح إنتم مش بتصلوا أمام تمثال المسيح والعدرا؟!

انفعلت الأم عليه طالبة منه عدم التدخل، اعترض مرقص :

- دي أختي .. ومستقبلها يهمني .. ومن حقها تختار اللي ترتبط بيه .

- حقها تتجوز كافر .

- حقها تتجوز اللي بتحبه .

زادت كلمات مرقص من ثورة أمي:

ـ حب إيه بلاش كلام فارغ، الحب عيب .

- إزاي؟ ده ربنا عندكم محبة .

- عندنا ؟

ألقت عليهم عظة عن محبة المسيح، وأنها تفرق كثيرا عما يسميه الآخرون الحب ؛ لم يتدخل أبي في النقاش كالعادة ؛ وحاول الأب أن يثنيني عما أخطط له إيثارا للسلام العائلي، ولم أستجب له، صرخت

لأول مرة في حياتي في وجه أمي:

- هاتجوزه هاتجوزه .. أيوة بحبه .. والحب مش خطية.

بكيت في غرفتي، اتصل بي مودي في اليوم التالي، أخبرني أنه تعارك مع نانسي، أمرته إما أن يبدل مذهبه أو ينساني، كنت أغلي من داخلي، والدتي تتدخل فهي والدتي، ولكن بأي حق تتدخل ناسي، نعم هي ابنه خالتي، ولكني لا أتدخل مطلقا في حياتها، طلبتها على المحمول، طلبت منها زيارتي، وثرت عليها ثورة دهشت منها نانسي :

ـ بأى حق يا نانسى تتكلمى مع مودى؟

ـ أنا عاوزاكم تتجوزوا علشان كده بقصر عليه الطريق.

دهشت من جوابها وطريقة نانسي الرقيقة في الكلام، فواصلت نانسي حديثها:

ـ أصل أنا عارفة خالتى .. مش هتوافق إلا لما يغير مذهبه.

ـ لو سمحتي.. ملكيش دعوة بمودي .. ولا ليكي دعوة بالموضوع ده من أساسه.

- حاضر .. بس ما تزعليش.

أصرت أمي على موقفها الرافض من ارتباطي بمودي، وأعلنت أنا العصيان والإضراب، حبست نفسي في غرفتي، وأعلنت أنني لن أذهب إلى فرح نانسي، واكتفيت من الطعام بالقليل الذي هربه إلي أخي مرقص.

بعد عدة أيام قبيل فرح نانسي فوجئت بدخول أخي علي ليعلمني بموافقة الأم من حيث المبدأ، أمطرته بالقبلات:

- بالراحة على .. خلي البوس ده لسي روميو .. يالاه علشان تروحي لبنت خالتك، دي ساعدتني كتير في إقناع حضرة الناظرة.

دهشت من تدخل نانسي لصالحي فأنا أعلم تعصبها، أراد مودي أن يحدد يوما لزيارتنا، فطلبت منه التأجيل إلى ما بعد فرح نانسي، واتهمته بالاستعجال:

ـ طبعا لازم أستعجل علشان بحبك.

«ما أحلي الحب، وأنا كمان بحبك يا مودي».

لم أستطع أن أقولها له مباشرة ولكنه بالتأكيد شعر بها.

- 8 -

مرقص

لا أدري لماذا دائما ما يكون المؤمنون متعصبين، ورغم أني طبيب، وفي فرع صعب منه، إلا أن هوايتي الوحيدة منذ أن كنت مراهقا هي قراءة التاريخ، وصفحات التاريخ مليئة بالمجازر، وأبشع المجازر تلك إلتي تنتسب للدين.

اختلف بنو إسرائيل مع الشعوب الأخرى، فذبحوا من الأغيار الملايين إرضاء لأوامر يهوه، بل قتلوا الحياة في أي مدينة دخلوها، هكذا قال العهد القديم.

واختلف المسيحيون فيما بينهم حول لاهوت المسيح، فسالت الدماء أنهارا وكفر الواحد أخاه على كلمة، ولم تهدأ أوروبا إلا عندما أعلنت حيادها تجاه الدين.

وانتشر الإسلام بالغزوات والتي سموها فتوحات، أسلم أو اخضع أو مت!!!

لا ننسي الحروب الصليبية بين أتباع الصليب وبين العرب، ولا

ننسى اضطهاد اليهود وذبحهم في بولندا وروسيا، وقبل ذلك ذبحوا مع المسلمين في إسبانيا.

لا أدري ما المشكلة في أن يتزوج أنجيلي من قبطية، بل ماذا يمنع أن تتزوج مسلمة من مسيحي أو حتى يهودي، لماذا تمنع الأديان الإنسان من الاستمتاع بالحياة وممارسة الحب، إنه التعصب.

جلست مع والدتي في حجرتي مهدئا إياها، شارحا لها أن مريم ابنتها الوحيدة، التي تحبها، وأن مريم متدينة لا يخشي عليها أن تغير مذهبها، وأن مريم طول عمرها تحب وتحترم والدتها، وأن من حقها أن تختار شريك حياتها خاصة إذا كانت تحبه، ثارت والدتي علي:

- بلا حب بلا قلة أدب.

- يا حضرة الناظرة .. باعيد عليك الكلام .. دينكم بيقول الله محبة.

- دينا أمال إنت إيه؟

- أنا مقدرش أبقي في دين بيفرق بين اتنين علشان شوية كلام فاضي وفارغ.

- شكرا يا دكتور يا متعلم.

لم تستسغ أمي كلامي، خاصة بعد أن شككت في صحة عقيدتها، ولم تأخذ تهديد مريم بالانتحار مأخذ الجد، رغم تحذيري من خطورة الموقف فازددت في سخريتي من عقائد والدتي:

- خللي بالك .. المسلمين بيقولوا عليكم كفرة .. ومحدش في الآخر

عارف مين الصح .. مش ممكن الهندوس يطلعوا صح .. وممكن كلنا ناخد صابونة.

لم أيأس من رفض أمي، أعلم أن والدتي عنيدة، الحل في أيدي نانسي فلأطلبها، وهي أيضا فرصة لنحتفل بزواجها:

- أهلا يا عروسة.

- دلوقتى افتكرت.

قبلتها في خدها، ثم أكملت القبلة إلى شفتيها، وأطلت فيها إلى أن ساحت نانسي وتاهت:

- عارفك مشغولة علشان الفرح .. عمليتك إمتى؟

- قبل الفرح بيومين.

- كويس علشان أنت وحشاني خالص.

أخذتها بين ذراعي، وامتطيتها على الأرض بعد أن افترشتها بما يلزم، وبعد أن أفرغت نشوتها عدة مرات طلبت منها المساعدة في مشكلة أختي:

- بس دي هزأتني.

- ميبقاش قلبك إسود بقي .. دي برضه بنت خالتك.

- طيب وهاتديني إيه؟

- الخير كله.

ضحكنا بخلاعة، وأكملنا اللذة.

- 9 -

نانسي

نعم أحب مرقص، ونعم أحب الجنس ولكنني أيضا متدينة، أعشق مبادئ ديني، فداء السيد المسيح، لاهوته لم يفارق ناسوته ولو طرفة عين، وأرفض الآخرين من بروتستانت ومسلمين، المسلمون يسوموننا العذاب، وقريبا قد تقرر الدولة أن تأخذ منا الجزية، والبروتستانت أغراب، أصولهم ليست مصرية، أو مصريون رضخوا لإغراء الحملات التبشيرية، لم يكونوا أقوياء مثل بعض أسلافنا.

أقول البعض لأن بعض أسلافي لم يقاوم الغزو العربي، كما تحول البعض بفعل القهر والجزية إلى الإسلام.

سلمت نفسي لمرقص بعد أن دك حصون مقاومتي بمعسول الكلام، ثم تهرب مني والسبب غريب، إنه رافض للزواج كنظام اجتماعي!!

عرفت رجالا كثيرين، أي مارست معهم الحب، والتي يسمونها

خطية، ولكني كنت حريصة على ألا أكون تحت مهرطق أو مسلم.

لا ذنب لي في نار جسدي، لم أخلقها ولكني أكتوي بها، ولا بد من الخطية لأطفئ نيران جسدي.

وفي نهاية الأمر عدت إلى مرقص، إنه يشبعني ويجعلني أشعر بأنني امرأة كاملة.

كلمتني خالتي على موضوع مودي بعدما علمت أنه زميلي في العمل، طمأنتها:

- حاضر يا طنط .. ما تقلقيش يا يخش معانا حظيرة الإيمان يا ينسى مريم!

هددت مودي بطريقة غير مباشرة، أن خطوته هذه صنعت فتنة في منزل خالتي وأن لا طريق له إذا أراد إكمال الزواج إلا تغيير مذهبه .

حاول أحمد التدخل في النقاش :

- يا سلام .. ده إيه الجبروت اللي إنتم فيه ده .

- معلش يا باشمهندس .. لو سمحت .. دي أمور خاصة ما تتدخلش .

اعترض مودي، وتتطور النقاش وكاد أن يصبح عراكا، فقد علت الأصوات وتدخل الآخرون من زملاء المصلحة، وحاول سمير تهدئة الموقف ومساعدة مودي، ولكني ردعته صارخة فيه ومهدده إياه:

- معلش يا أستاذ سمير خليك بعيد أحسن.

فسكت سمير ثم انسحب مهزوما، فصرخ أحمد في:

ـ ده إنتي ولا محاكم التفتيش .. حتى مديرك صرخت فيه!

لم أهتم بكلام أحمد فهو لا يمثل شيئا، المهم عندي مودي، لا بد أن يرضخ.

وبعد مقابلة مرقص، قررت أن ألاعب مريم ومودي، أساعدهما وأطوقهما في نفس الوقت، حتي يرضخ المهرطق لنا.

فوجئت خالتي بأنني أطلب منها الموافقة على خطبة مريم لمودي، طلبت مني تفسيرًا لهذا الموقف، خاصة بعد عراك مريم معي:

- أبدا يا خالتي .. بس أنا واثقة إن أحنا لما نحاوطه ممكن ندخله حظيرة الإيمان.

- وإذا عند؟

- نفسخ الخطوبة على طول.. خليها خطوبة بس يا خالتي.

صمتت خالتي، ولكني أوضحت لها أن مصلحة كنيستنا هي أول اهتماماتي، وأنني تعلمت هذه المبادئ منها، احتضنتني، وأعلنت الموافقة على فكرتي.

هكذا أرضيت إيماني وخالتي، وكسبت مودي ومريم، وأعلم أن ذلك سيربط مرقص بي.

- 10 -

أبله الناظرة

لا أدري أي ذنب جنيت حتى أصاب بزوج ضعيف، وولد عاق فاسد، حتى ابنتي خادمة الكنيسة تريد الاقتران بمهرطق، البروتستانت يكرهوننا وإن ادعوا المحبة، خلافهم الأساسي كان مع الكنيسة الكاثوليكية، ماذا أتى بهم هنا في أرضنا؟

نعم أرضنا، الأقباط أصل مصر، البروتستانت ورم سرطاني اخترعوه في القرن التاسع عشر، والإسلام وباء أصابنا من العرب في القرن السابع.

أين مريم المطيعة التي كانت تنصت إلى نصائحي حتى في اختيار ملابسها؟ لماذا تجرأت علي الآن؟ لقد أصبحت معلمة مثلي وبفضلي، كانت تستشيرني في كل صغيرة وكبيرة، ماذا حدث؟ لقد بدأ التغيير حين أعلن مرقص كفره، ظننت دفاعها عنه محبة لأخيها، ولكي يعم السلام منزلنا، ولكني كنت مخطئة، دخل الشيطان نفسها وتمكن

منها.

إن تأثير هذا الشاب المسمى مودي شديد، ولكن لن أستسلم، لم أتعود على الاستسلام لا في حياتي الخاصة ولا في عملي، قررت الاستعانة بجهود نانسي مساعدتي المخلصة، ولكن نانسي اقترحت الموافقة الشكلية لضم مودي إلى حظيرة الإيمان، إيمان الطريق المستقيم لا الإيمان الإنجيلي، ليت نانسي كانت ابنتي.

لم أهتم بإعلان مريم الإضراب من قبل، أعلم أنها تضغط علي، ولكن من يتحمل ينتصر في الآخر، حتى أنني لم أكلمها لتحضر حنة نانسي، ولكن بعد اقتراحات نانسي الجديدة حضرت مريم، لم أر مريم ترقص من قبل، رقصت مع نانسي، وأثارت إعجاب الحاضرات. سمعت حوار إحدى السيدات العجائز مع زميلتها:

- شوفي يا أختي بنات آخر زمن!
- ده إحنا مكناش بنات.
- والعريس يا أختي .
- ماله؟
- متريش .. شغال في البترول.
- بس على الله يلمها.
- ليه والكنيسة اللي بتخدم فيها؟
- بيقولوا يا أختي .. أنا سمعت ما شفتش.

- متصدقيش كل حاجة بتتقال.

- ولا أنت تصدقي كل اللي عاملين نفسهم ملايكه.

ماذا تقصدان تلكما المخرفتان؟ فكرت في إثارة مشكلة ولكن اليوم يوم فرح، كما أن تكراري لكلامهما سيضر نانسي ومريم، اللعنة على النساء الجاهلات، لا يتكلمن إلا في الأعراض، إنهما مثل نساء المسلمين.

في يوم فرح نانسي بعد إنهاء الإكليل، وفي قاعة الأفراح، فوجئت بمرقص يجر وراءه شابًا يتصبب عرقا رغم برودة التكييف، تأملته من أعلى إلى أسفل، لم أجد فيه شيئا مميزا، إنه شاب مثل أي شاب، غاظني مرقص حين عرفه علينا:

- ماما، بابا المهندس مودي خطيب مريم.

- أختك فين يا مرقص؟

سألته لأعلن اعتراضي على صفة تقديم مودي لي، أما زوجي والذي بلاني به الرب فرحب بمودي في إطار المجاملة.

- 11 -

موري

في منزل أحمد أطلقت والدته وابلا من الزغاريط عند حضوري لزيارة ابنها وإخبارها بالأنباء السعيدة:

- لازم أروح أبارك لأهلك.

- لسه بدري يا طنط.

تدخل أحمد باسما:

- المهم دلوقت نحضر لكشف الهيئة.

دهشت والدته من التعبير، أفهمها أحمد أهمية فرح زميلتهم نانسي الذي سأتعرف فيها على أهل مريم.

في يوم الفرح ساعدني أحمد كثيرا، ذهب معي إلى الحلاق، أقنعني باستخدام الفتلة حتى أنزع الشعر الصغير في الوجه، وأشرف على ملابسي، ارتديت بذلة سموكن زرقاء اللون، مع قميص أبيض وكرافتة حمراء، كل من رآني ظن أني العريس اليوم وليس مدعوا،

ذهبنا مدعمين بدعاء والدتينا إلى كنيسة الفرح في شبرا، لم تكن الكنيسة بعيدة عن المنزل، من الصدف أن منازلنا أنا ومريم متقاربة من بعضهما البعض، أيضا عملنا أنا وأحمد ومدرسة مريم لم تكن بعيدة عن منزلنا، انتظرنا خارج الكنيسة حتى حضور العروس، كنت بالطبع أنتظر مريم التي خمنت أنها ستأتي مع العروس.

حضر العريس قبل العروس منذ دقائق، وهو واقف مع أشخاص كثيرين، يبدو لي أنهم أهله أو أصحابه، يوجد شخص يشبه مريم، أعتقد أنه مرقص، الكل ينتظر نانسي، جاءت مريم وسط زحام شديد، ترتدي فستانًا أزرق طويلا زادها جمالا، وكان فستان العروس عاريا ذا أكمام شفافة جدا أظهرت بياض ذراعيها، والصدر مفتوح، فبرزت استدارة نهودها.

ورغم تألق نانسي وأناقتها لم يلفت نظري سوى ابتسامة من شفتي مريم بدت وكأنها لي وحدي.

ترددت في دخول الكنيسة ولكن أحمد شجعني:

- إيه ياعم .. إنت خايف تخش .. أمال هايشوفوا الشياكة دي إزاي؟

وبدأت الترانيم والصلوات، طلب الكاهن من نانسي أن تطيع زوجها كما أطاعت سارة أبراهام، أحسست بالضيق فأنا غير معتاد على مثل هذه الطقوس، كما أنني الآن ليس في كنيستي، قلت لنفسي همسا:

» مالهم مملين كدا الجماعة دول»!

لا أدري هل سمعني أحمد، إذ فوجئت به يقترب من أذني ويهمس لي:

ـ اصبر يا صاحبي واتحمل!

ـ دول مهتمين بالشكليات، ليه أبونا ما يخلص إجراءات الزواج؟

ـ اصبر.

في صالة الأفراح الواسعة الواقعة بأحد الفنادق الفخمة، استطعنا أن نجد منضدة بصعوبة في مؤخرة القاعة، جاءت مريم ومعها أخوها، عرفتنا به، صدق حدسي فهو من كان واقفا بجوار العريس.

عمل مرقص على إزالة التوتر البادي على وجهي، كان حديثه مرحًا، دخل مرقص قلبي تمامًا، بدا لي إنسانا طبيعيا خاليا من العقد، كما أنه بدا لي متحررا وعاقلا، طلب مني الذهاب للتعرف على أهل مريم، وجلست مريم بجوار أحمد.

تغير وجه أم مريم عندما رأتني فأصبح وجهها جامدا دون انفعالات، وكأنها وضعت قناعا عليه، ثم نظرت بشرر عندما ذكر مرقص أنني خطيب مريم، عدت وها أنا أتصبب عرقا، لاحظ مرقص توتري، ففاجأني أن طلب مني أن أخذ مريم لنسير في حديقة الفندق وسط دهشتي ودهشة أحمد.

رفرف كيوبيد بجناحيه في حديقة الفندق باسطا حماه علينا، أخبرتها

بإعجابي بأخيها، حدثتني عن صراعه الدائم مع والدتها، وعن علاقتها الطيبة به.

أمسكت يدها واقتربت من وجهها لأشتم رائحتها، قبلت يدها:

- بحبك بحبك بحبك.

لم تستطع مريم أن تجاريني في إظهار عواطفها، بدا على وجهها الخجل والخوف، كانت تنظر إلى الأرض ثم تختلس نظرة إلى وجهي.

- اتأخرنا .. تعال ندخل يا مودي بعد إذنك.

دخلنا، كان من الواضح أن نقاشًا حاميا جرى بين أحمد ومرقص، بالتأكيد الحديث سياسي، فصديقي أحمد لا يحتد إلا في السياسة، رآنا مرقص ونحن قادمان فأنهى الجدال بطلبه من أحمد ألا يغضب من النقاش:

- إطلاقا يا دكتور .. الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

- بس ده مبدأ ليبرالي مش ماركسي يا باشمهندس.

لم أستطع بعد انتهاء الحفلة أن أتكلم مع صديقي أو مع أحد، كان أحمد يريد أن يحكي لي مناظرته مع مرقص.

اكتفيت بتقبيل الجميع، قبلت أحمد ووالدته، قبلت بابا وماما، كنت متوحدا مع الحالة الشعورية التي أمر بها، اعترفت علنا للجميع وسط نظرات الدهشة من حولي.

- ما أحلي الحب!

- 12 -

أحمد

اغتظت جدا من موقف نانسي ومحاولتها تغيير مذهب صديقي، تذكرت نقاشها معي وفرحتها عندما علمت أني قرأت الإنجيل، حاولت معي أيضا ولكني صددتها:

ـ أنا مش عارف أتخلص من إله واحد عاوزاني أخش على تلاتة!

ثارت وصالت وجالت، اتهمتني أني لم أفهم المسيحية، وأنهم يؤمنون بإله واحد، ولكنها أقانيم، شرحت لي معني الأقانيم، حاولت شرح أسرار الكنيسة وفوجئت بمعرفتي بها.

مال عليها صديقي مودي ليخبرها بإلحادي حتى توقف المطاردة، اكتفيت بالابتسام حين أخبرني مودي.

أنا لست ملحدًا، نعم لست مسلمًا كالمتعارف عليه مثل أمي، ولكني لست ملحدًا، شرحت لها أولوياتي، الأهم أن أبحث في قضايا الناس خاصة البسطاء منهم بدلا عن بحثي في قضايا السماء

الخلافية.

حين ضغطت نانسي على مودي عندما علمت برغبته في الارتباط بمريم، أسميتها هولاكو، وقلت لها ذلك في وجهها، الغريب أن الاسم أسعدها، قالت وهي منتشية:

ـ أنا هولاكو من أجل الصليب.

اليوم وفي حفل زواج نانسي تركني مودي ليذهب مع مريم بناء على نصيحة أخيها مرقص، قدرت هذا الفعل منه، بدا لي متحررا، ولكنه للأسف استفزني في نقاش عقيم.

أعلن بكل وضوح أنه ملحد، وأنه رغم إلحاده فإنه بالذات يكره الماركسيين ويحتقرهم، وأننا لا نختلف كثيرا عن جنود القاعدة أو الإخوان، فقط اختلاف اللسان والرطانة كما وصف.

- ما هي الماركسية دين يا باشمهندس.
- إزاي؟
- مش فيه منظر في الحزب؟
- ولنفرض.
- ده زى مرشد الإخوان.
- يا سلام!!
- والقيادات زى مكتب الإرشاد.
- يمكن رأيك ده يكون صحيح عن أحزاب زمان .. بس دلوقت

الأحزاب الشيوعية فيها ديمقراطية بجد.

- يعني؟

- يعني الأحزاب والحركات دلوقتي كلها شباب .. وكلهم ضد الأساليب الستالينية القديمة.

- أنا مش مقتنع

نعم في كلامه بعض الحقيقة، ولكن في الأحزاب القديمة التقليدية، والتي تربت على أوامر موسكو أيام كان هناك ما يسمي بالاتحاد السوفيتي، والتي تربت أيضا على وهم الديمقراطية المركزية، والتي أدت - في واقع الأمر - إلى ديكتاتورية الفرد أو الجماعة، كما أدت إلى الشللية والحلقية، وكل هذا جعلها تبتعد عن الجماهير.

ولكني لن أستسلم لاتهاماته، هاجمت الملحدين غير الماركسيين، الذين يعيشون فقط لملذاتهم، وهم مثال سيئ للجماهير، فهم فقط يحيون لأنفسهم،، ولا يدرون عن معاناة الجماهير، قابل مرقص هجومي بمزيد من السخرية:

ـ حلوة معاناة الجماهير دي.

بعد انتهاء الفرح حاولت أن أناقش مودي، ولكنه قفل أذنيه، على وجهه نشوة غريبة، أحمد الله أنني لم أجربها، فبعد النشوة دائما ما يأتي الألم.

عائلة غريبة سينتسب إليها صديقي، عروس متدينة ولكنها محترمة، أم شديدة ومتعصبة، أب بدون سلطة، وأخيرا أخ فاجر، وبالطبع لن أنس هولاكو، زميلتنا نانسي بنت خالة العروس.

بالتأكيد سيعاني معهم مودي، نظرت له بإشفاق ولم أستطيع أن أتدخل لإيقاف تيار سعادته.

- 13 -

مريم

اختلط الحزن والفرح في منزلنا، الفرح على وجهي والدتي ونانسي، استمعت إلى والدتي وهي منتشية، تستعيد ذكري وتفاصيل المعركة، فدخلت حجرتي باكية.

صالة منزلنا أنيقة، مليئة بصور القديسين وصور العذراء يتوسطها تمثال المسيح مصلوبا على جدران الحوائط، وأمام تمثال المسيح وقفت والدتي تتباهي أمام أبي، قصت عليه تفاصيل غزوة النعش وكأنها قائد جيوش المسيحيين في نهاية الزمان الذي ينتصر على قوي الشر في معركة أرمجدون، وسينقذ العالم من الغرق في الظلام ليشع نور الإيمان على العالم أجمع.

لم تنس أمي دور رئيس أركانها بنت خالتي مدام نانسي، ماذا قالت وماذا فعلت، وكيف لعبوا بطريقة «أربعة اثنين أربعة» لينتصروا على الفريق الآخر، ويعيدوا النعش إلى كنيستنا ليدفن بالطريقة المثلي بعد

إنشاد الترانيم وإطلاق البخور والصلاة عليه حتى يستطيع المتنيح أن يعبر إلى ملكوت السماء.

قمت غاضبة وسمعت أبي ينبه أمي، فترد أمي بقسوة ولا مبالاة:

- سيبك منها .. شوية وهاتهدي.

- ومودي عمل إيه؟

- خالتي مخلتهوش نطق.

- أحسن يختلف مع مريم.

- يا ريت .. يا إما يبقي زينا يا يروح في داهية .. أنا من الأول قلت لنانسي ومرقص كده.

علمت أنها النهاية، تركت الإنصات إلى حديثهم السخيف، وسجدت أمام تمثال المسيح أدعوه أن ينشر المحبة في قلوب عائلتي، وقلب خطيبي:

- يا يسوع .. خليك معايا ومع خطيبي.

كنت أحب غرفتي الصغيرة، فهي مطلية باللون السماوي الهادئ، ومضاءة بمصابيح خافتة، بها سرير صغير تعلوه صورة العذراء، وإلى جانب الدولاب تمثال للسيد المسيح، وعلي السرير يرقد الدبدوب أول هدية من مودي.

يحب والدي غرفتي، ولطالما قال عنها إنها هادئة وأنيقة، أما مودي فقد شبهها بي ووصفنا بالجمال والأناقة.

هدأت بعد الصلاة، حاولت أن أنام ففشلت، طرق أبي على الباب، سألني إذا كانت أريد الطعام فرفضت.

عدت إلى السرير، أسترجع ذكرياتي الأولى مع مودي، جال في خاطري أول لقاء بيننا حين صرخ مودي لصديقه وجدتها وكأنه إسحق نيوتن، كنت في هذا اليوم أعطي دروسا مجانية للطالبات الراسبات، واستأذنت للذهاب إلى نانسي لمساعدتها في شراء بعض الأشياء النسائية استعدادا لفرحها، لا أدري ما الذي جذبني إليه، فكررت زيارتي إلى بنت خالتي مرارا وتكرارا بحجج واهية، كنت أريد أن أراه خاصة بعد حديثه معي على مواقع التواصل الاجتماعي، كنت أريد أن أعرفه أكثر، وأن أتأكد من عواطفه وعواطفي، ولكنني رفضت الخروج معه دون رابط رسمي، تذكرت ذلك اليوم الذي سألني أحمد فيه عن رأيي فيما فعلته نانسي مع مديرهم الأستاذ سمير حين غير مذهبه فقادت نانسي حملة ضغط اضطر سمير أن يعود عن قراره حفاظا على بيته وعلى بناته:

- لا طبعا .. اللي عملته نانسي غلط .. هو حر.

- ولو أسلم؟

كان ذلك سؤال مودي لي الذي ظهرت عليه أمارات السعادة من إجابتي، فاجأتهم بإجابة جعلت وجه مودي أكثر سعادة:

- من غير المهندس أحمد ما يزعل .. كنت هازعل على الأستاذ

سمير لو أسلم .. بس برضه ده حقه.

اعترضت نانسي على هذا النقاش، واتهمت زميليها بمحاولة إلحادي، كاد الأمر أن يتطور لولا أن مودي وأحمد لم يجاريا نانسي في النقاش، ذكرتني نانسي أنها لم تكن بمفردها وأن والدتي كانت العقل المفكر في عودة سمير إلى حظيرة الإيمان، وأن نانسي شاركت بجهد ضئيل في هذه المعركة، فقالت لي وكانت تقصد مودي بهذا الكلام :

- إنت ناسية إن خالتي اللي هي والدتك هي اللي اتصدرت للموضوع.

صرخت في داخلي:

ـ إزاي ما خدتش بالي من كلام نانسي على ماما.

ذهبت بي الذكريات إلى يوم فرح نانسي عندما أمسك مودي يدي بحب، أول شاب في حياتي، ما زلت أشعر بحرارة وخشونة يده في كفي، قبلت باطن وظهر كفي، وابتسمت وأنا سعيدة بذكرياتي .

قفزت الذكريات بي إلى اليوم الذي جاء فيه مودي مع والديه لخطبتي، عندما قبلتني والدة مودي، كانت أمنيتي أن يكون مودي صاحب القبل، وكيف أملت أمي شروطها وتعاملت بعجرفة وفوقية مع مودي وأهله:

- خطوبة فقط .. نلبس دبل سنة ونشوف هاينفع يستمروا ولا لا؟

وكيف تماسك مودي وأسرته أمام والدتي، فلم ينجرفوا إلى

استفزازاتها.

أحببت أسرة مودي، فلا يتدخل أحد في حياة الآخر، قص علي مودي أنه في يوم ما أبلغت شقيقته لانا أباها أن نادر زميلها يريد أن يتقدم لها، وافقت الأسرة رغم اعتراض الوالدين غير المعلن، فهي حرة في حياتها، فهكذا كانت تربية مودي ولانا، حتى عندما قرر نادر ولانا الهجرة إلى أمريكا لم يتدخل أحد، رغم احتياج الأبوين المعنوي إلى عطف وحنان الأبناء، ورغبتهم في رؤية الأحفاد.

رغم أن في يوم الخطوبة كان مقياس ريختر للتوتر عاليا بسبب ضيق حضرة الناظرة ووجهها الغاضب، وكلامها الرسمي الجاف، إلا أنه من أسعد أيام حياتي، عشته وأنا أتذكر وكأنه بالأمس، جلست بجوار مودي في صالون منزلنا مرتدية فستانًا روز شفافًا، شبه عار من ناحية الصدر رغم اعتراض أمي، إلا أنني صممت على ارتدائه، حتى تعلم أن لي إرادة مختلفة عنها:

- اشمعني نانسي يوم فرحها .. معلقتيش .. كان فستانها أفضح من ده.

لم تدع والدتي الناظرة أحدًا إلى الخطوبة، وأصرت على أن تكون في أضيق الحدود مثلما قالت لوالدة مودي، فاقتصر الحضور على الأسرتين، بالإضافة إلى نانسي التي حضرت بمفردها بدون زوجها، وأحمد ووالدته.

ما زلت أستطعم أغاني الخطوبة حتى وإن كانت رديئة، فالكلمات واللحن بل حتى الصوت لا يعني لي شيئا، المهم أنني بجوار مودي الذي ألبسني الدبلة، التي اخترناها معا.

أخرجت ألبوم الصورلأري صور رقص أحمد ومرقص سويا، تنافسا مرقص وأحمد مع بعضهما البعض في الرقص والغناء وفي التهريج، مما أشاع جوا مرحا في حفل الخطوبة، وقلل درجة ريختر للتوتر، واستمتعت بكمية الزغاريط التي أطلقتها والدة أحمد وكأن العريس ابنها، خاصة بعد رفض الناظرة أن تطلق زغاريط بحجة أنها لا تدري كيف؟ مع أنها فعلتها يوم فرح نانسي، ومع امتناع والدة مودي احتجاجا على سلوك الناظرة، إلا أن والدة أحمد قامت بالواجب وزيادة، شاركتها نانسي بعد أن بدا على وجهها التردد، أكيد خشيت من إغضاب خالتها.

قطبت جبيني حين تذكرت رقص نانسي الخليع واهتمامها بمرقص أخي، لاحظت أن نظرات نانسي ومرقص لبعض نظرات حيوانية، لم أشك ساعتها في شيء، ولكن بعد ذلك تذكرت كل حركاتهما:

ـ كم أنا غبية! كيف لم ألاحظ؟!

تنهدت، ولعنت نانسي بغل وأنا على سريري:

– ملعونة .. عاملة قديسة وهي خطية.

بكيت بشدة وصرخت ثم كتمت صرختي حتي لا يسمعني أحد:

ـ بكرهك يا نانسي.

مسحت دموعي وصليت طالبة الغفران من الرب:

ـ سامحني يا يسوع .. نسيت كلامك .. أحبوا أعداءكم.

اليوم التالي للخطوبة، كان مودي يريد أن نذهب إلى الخارج ولكن والدتي رفضت بشدة، فتدخل مرقص بحنيته المعتادة:

- تخرجوا إيه وحدكم .. ده أنا عازمكم على العشا بره وحاجز التربيزة.

وخارج المنزل طلب منا الانطلاق إلى معابد الحب:

- يالا يا هندسة خد خطيبتك وحب فيها .. أنا مش فاضيلكم.

- طيب وماما يا مرقص؟

- لما ترجعوا اطلعي بأي حجة.

وبعد انتهائنا من أداء صلاة الحب في إحدي الكازينوهات الرومانسية المطلة على النيل، خفت من ردود فعل أمي لتأخرنا، فطلبت من مودي الذهاب إلى عيادة مرقص تجنبا للصدام مع الناظرة، وهناك شاهدت نانسي تتلوي تحت جسد أخي من فرط اللذة، خاطبت نفسي حينها:

«كيف تكون ناسي خادمة وخطية في نفس الوقت»؟!

مرقص كان قد نسي أنه أعطاني مفتاح العيادة من قبل، كانت المفاجأة قاسية على الجميع، على نانسي التي افتضحت أمامي، وعلى مرقص

الذي حاول التماسك، وعلي أيضا، جريت مهرولة على السلم طالبة من مودي التحرك بسرعة غير عابئة بنداءات أخي، وأيضا لم أهتم لشأن مودي الذي لم يفهم شيئا مما يحدث بعد رفضي الكلام معه، وسط بكائي الذي تحول إلى صراخ هستيري عند وصولي غرفتي.

-14-

موري

«كان من المفترض أن أتنبه» هكذا قلت لنفسي، من أول يوم قالت لي مريم

إنها لن تستطيع إخبار والدتها، وأن مرقص هو من سيقوم بذلك، كان من المفترض أن أتخذ موقفا يوم أن تجاهلتنا الناظرة عندما تقدمت لمريم، أو يوم الخطوبة.

أسفت عندما تذكرت اليوم التالي للخطوبة، حين كانت مريم منهارة والناظرة تصرخ في وجهي:

ـ عملت في البت إيه؟

يومها لم أدر ماذا أفعل سوي الصمت، إلى أن جاء مرقص واعترف بمسئوليته:

- شافتني نايم مع واحدة.

قطبت الناظرة وجهها غضبا من خطية ابنها، وانكمشت وصمتت

خجلا مني، لم أستطع أن أتمالك نفسي فانسحبت بهدوء، لاعنا في سري هذه المرأة التي أهانتني، لم أنتظر أن أطمئن على مريم التي سرعان ما انهارت وأصابها الإغماء.

قررت أن أفسخ الارتباط ، ويا ليتني تمسكت بقراري، ولولا زيارة مرقص واعتذاره لي، ولولا ضغط أحمد علي لكنت أعلنت لهم القرار، حتى أن أحمد صرخ في:

- بيقولك مريم تعبانة .. يالا روح اسأل عليها.

والحق أقول، لولا حبي لمريم وخوفي عليها لما أصابها ما كنت تراجعت، لم نصدق أنا ولا مريم أنفسنا حين تركنا والداها بمفردنا في غرفة نومها، لقد خرجا حتى لا يعكرا علينا صفو الحب.

علمت في وقتها أن مريم لم تتناول شيئا من ليلة البارحة، طلبت من حماتي أن أعد لها الطعام بنفسي، سألتها:

- مريم بتحب تأكل أيه يا طنط؟

- لانشون وأومليت.

- بس؟

- ياريت تأكل أي حاجة.

رفضت أن يساعدني أحد في مطبخ مريم، أعددت البيض واللانشون وكوب لبن ووضعتها على صينية، وعلى السرير سقيت مريم اللبن في فمها بيدي، وكذلك أطعمتها البيض واللانشون بيدي،

أول مرة شعرت بمودة حماتي تجاهي، كان ظاهرا لها وللآخرين أنني أحب مريم، وأن مريم تبادلني نفس الأحاسيس، فقد رفضت مريم محاولات إطعامها من قبل ولم تستجب إلا لي، استغليت الانفراد دون عوارض فظفرت بأول قبلة، ما زال طعم القبلة في شفتي، أنبتني مريم:

- بلاش حبيبي .. دي خطية.

طلب مرقص مني أن أتدخل بينهما حتى يستطيع أن يعتذر لأخته على ما حدث، وأكدت مريم تأثيري عليها، فقبلت اعتذار أخيها، وهمست له بكلام سري لم أسمعه.

تغيرت معاملة الناظرة لأهلي حين جاءوا للاطمئنان على مريم، فبدلا من البرود في المجاملات وجدت والدتي أحضانا دافئة، وترحيبًا حقيقيًا بها وبأبي وبي لدرجة الدهشة، بل إن الناظرة فاجأت الجميع عندما سألت والدتي:

- الست الطيبة أم أحمد ماجتش معاكي ليه؟

- إحنا خفنا نضايقكم .. هي كانت عاوزة تيجي .. أصل مودي زى ابنها.

- ابقي سلمي لي عليها وعلى أحمد.

انتهز والدي الجو الودي الذي ساد المكان، فقص لمريم عن محاولتي وأنا صغير أن أسلك طريق الخطية وسط خجلي واهتمام مريم بالحديث، سألت مريم بابا:

- وعمل إيه؟
- صاحبه أحمد منعه لما قاله.
- معقولة؟

قالتها بدهشة الناظرة فهي تعلم أن أحمد ماركسي، أخيرا استجمعت شجاعتي وتجرأت في الكلام وحاولت أن أجعل الموضوع ضاحكا لأداري خجلي:

- أبدا .. إداني درس في الإنسانية واحترام المرأة .. بس هي مرة وبس.
- على العموم إنت حر .. أنا زعلي وحش زى ما أنت شايف.
- وأنا مقدرش أزعلك.

سرحنا أنا ومريم بمفردنا في سحاب الحب، تبادلنا القبلات بالنظرات، واحتضنا بعضنا البعض في الخيال، ثم تنبهنا إلى وجود الأهل، استمرت الزيارات بيننا، دون أي عوائق، ورضيت الناظرة بإتمام الزفاف في أي كنيسة، فرحت جدا بهذا الخبر حتى أنني قبلت حماتي واحتضنتها عندما أبلغتني الخبر:

- أنا آسف .. نسيت نفسي.
- إنت تبوس خطيبتك عادي .. تبوس مراتي ليه؟

أزالت هذه المداعبة من والد مريم الخجل مني، تنهدت وتذكرت حالنا الآن، قررت أن أحدث مريم حتى نضع النقاط فوق الحروف.

-15-

مريم

كنت أبكي على سريري لاحتمال انهيار الحلم الوردي، تساءلت في نفسي:

«لماذا لم يطلبني مودي كعادته كل يوم»؟

«أكيد هو غاضب، بس بكره هايهدى».

ارتحت قليلا لهذا التفسير، ولكني راجعت نفسي:

«ولو .. لازم يكلمني على الأقل يطمني عليه .. ده لو لسه...»..

شردت، ثم أكدت الفكرة في رأسي:

«لو لسه بيحبني».

قطع رنين المحمول تفكيري، إنه مودي، كان مقتضبا في كلامه، أكيد هو حزين وغاضب، ولكن الأهم أنه كلمني، اتفقنا على المقابلة بعد يومين.

رغم أن المكان هو مكاننا المفضل لممارسة شعائر الحب الرومانسي،

ونحن هما نفس الأشخاص مودي وأنا، إلا أن الظرف كان مختلفا اليوم، برد مثل شتاء لندن أيام أعياد الكريسماس، ليس بسبب ضعف الحب ولكن بسبب الأطراف الخارجية، مع هبوب رياح صحراوية مليئة بالتراب كتلك التي تجتاح دولة السعودية صيفا بسبب ما اقترحه مودي علي لحل المشاكل.

في بداية اللقاء أكد مودي لي أنني ما زلت في قلبه متربعة عليه دون منازع، ولكن قالها بصورة روتينية، لم أشعر بدفء حديثه كما كنت أشعر من قبل، حاول أن يكون دبلوماسيا ومهذبا عندما استعرض تاريخ المشاكل بينه وبين والدتي، استبعد مشاكله مع نانسي لأن مشاكله معها بدأت قبل أن يقابلني، ولأن نانسي يمكن إبعادها في ما بعد، كما قال هو ذلك، رغم أنها طرف أساسي في المشاكل.

لملمت روحي المبعثرة وسألته بصراحة وشجاعة رغم الخوف الذي يملأ صدري وقلبي من مقدمة مودي والتي لا تبشر أبدا بالخير:

- يعني قصدك إيه؟

أعاد علي قصة شقيقته لانا وزوجها نادر، كيف استقبل أهله الخبر بطريقة مختلفة عما حدث مع والدتها:

ـ ورغم إن مفيش مشاكل .. قرروا يهاجروا أمريكا علشان يحسنوا مستواهم العلمي والمادي.

صمتت ولم أعلق، أريد أن ينتهي، بأي شيء يلوح، وكلي انتباه

لكلام مودي وانتظار عرضه بقلق، وواصل مودي حديثه:

ـ ومحدش من أهلي عارض سفرهم.. أنا اللي عارضت علشان مرتبط بلانا.. بس طبعا مصلحتها أهم .

– بس إنت قلت لي قبل كده لانا مكنتش مرتاحة هناك.

– في الأول بس .. دلوقت اتعودت على أمريكا وعلى الحياة هناك.

ازداد قلقي، فكرت في تلميحات مودي، ماذا أراد بهذا الكلام؟ استبعدت طرح فكرة الهجرة، خيل لي عقلي البسيط أنه سيطرح علي أن نحيا في إحدى المحافظات، تماسكت رغم خوفي من القادم، ورغم توجس قلبي وانقباضه إلا أنني طالبته بالاستمرار لأرى إلام يرمي من هذه التلميحات.

– أنا فكرت كتير .. ومالقيتش غير حل واحد لمشكلتنا.

– إيه هو؟

تناول مودي كوب العصير الموضوع أمامه وارتشف رشفة واحدة حتى استجمع قواه على مواجهة الموقف، وسط ترقبي الكامل لكلامه:

– أنا عارف إن اللي هاقوله صعب عليكي.. بس صدقيني .. ده الحل الوحيد.

– قول يا مودي .. أنا سامعاك.

– نسافر أمريكا ونقعد هناك .

كانت مفاجأة مدوية علي، تمالكت نفسي، وحبست دموعي، لا أريد أنا أبدو ضعيفة أمامه، لم أدر ماذا أقول له، هو يعلم أن أسرتي وتحديدا والدتي سترفض، إنه يضعني بين خيارين هو وقلبي في كفة، ووالدتي والتزامي الديني والأخلاقي تجاههما في كفة أخرى، صليت في سري أن يلهمني الإله الحكمة والثبات، وألا أنهار أمامه:

- عاوزنا نهاجر؟

- وليه لا؟

- وليه آه؟

- علشان نهرب من المشاكل اللي ملهاش حل.

- وأهلك موافقين؟

- أهلي لسه ميعرفوش.

- ممكن تسمعني.

- اتفضلي.

حاولت أن أحدثه بهدوء وتعقل، قد أستطيع أن ألمس قلبه، ليفكر مرة أخرى في قراره:

- أنا عارفة إن ماما متعصبة .. بس ديه أمي.. وهي كمان شهرين هاتطلع معاش ووالدي أصلا على المعاش.

تململ مودي على كرسيه وتركني أسترسل في حديثي.

- وإنت عارف إن مرقص ملوش دعوه بيهم .. إزاي أسبيهم وهما

فى السن دي محتاجين ليه؟ ده يبقي شكري ليهم علشان ربوني؟

أمسكت بكوب العصير الفارغ بعصبية عندما بدا لي أن كلامي لا يؤثر عليه، ظل مودي صامتًا، حاولت أن أهدأ، وأكملت حديثي:

- كمان من حقهم يشوفو عيالنا .. ومن حق عيالنا يدلعوا عليهم.

- ما هي العيال مشكلة .. الناظرة ممكن تربيهم على إن أبوهم كافر.

صمتت ولم أستطع الرد، فواصل مودي اندفاعه وهجومه علي وعلى أسرتي:

- بصي يا حبيبتي.. فى أمريكا الواد أو البنت بيسيبوا أهلهم بعد ما يخلصوا مدرسة.

- ده في أمريكا .. وإحنا في مصر.

- عندك حل تاني؟

- نحاول مع ماما تاني.

- لا لا لا.. بصي أنا حاولت .. بس مفيش فايدة.

قالها بشكل قاطع وصوت عال جعل باقي العاشقين ينظرون إلينا، لم أستطع أن أمنع دموعي، وسط تجاهل مودي لهذه الدموع، طالما قال لي سابقا: «دموعك غالية علي».

- إنت اتغيرت يا مودي.

- كلنا الزمن بيغيرنا.

- أنا عارفة إن ماما جرحتك .. بس إنت ما بقتش تحبني زي الأول.

- يعني أتشتم واسكت.

صمت ولم أستطع الرد، ولم أستطع الجلوس أكثر من هذا، طلبت منه الانصراف، رفضت أن يوصلني، سأستقل سيارة أجرة، الغريب أنه لم يلح علي كما كان يفعل من قبل.

-16-

مرقص

كنت ثائرا، الآن فقط سمعت بمعركة النعش الكبرى، كنت غائبا بسبب العمل، هكذا قلت لهم، كما أنني أضيق بالواجبات الاجتماعية خاصة في حالات العزاء، كما أن المتوفى ابن خال والدتي ، وفي نظري هذه قرابة بعيدة.

الحقيقة أنني بعد انتهاء عملي كان لدي موعد مع امرأة مسلمة، لا يعترف الجنس بدين ولا أيضا بالمال، أنا أعرف هذه الحقائق ولكن والدتي لا تريد أن تعرف إلا ما تؤمن به، وكذلك الأغبياء المؤمنون من مسلمين ومسحيين.

طلبني والدي في خطوة غير معتادة مستنجدا بي، وقص على ما حدث، فجئت على الفور، إلا مريم، أختي الملاك الطاهر، المؤمنة الوحيدة التي أحترم إيمانها.

سخرت من والدتي، ومن إيمانها المسيحي، سخرت من حال

المجتمع الذي رفض التطرف سياسيا ومارسه يوميا في تعاملاته، فاجأت والدتي لأبين لها أوجه الشبه بينها وبين الإخوان ولكنها لم تفهمني:

- أنا هانزل المظاهرات مع الإخوان.

علت الدهشة وجه والدتي، هل تعتقد مثلا أني أسلمت! ابنها وقبل أن تسألني بادرتها:

- أيوه وهادعي كل الآلهه تنصرهم علشان يتمكنوا من البلد .. وياخدوا منكم الجزية.. ويلبسوا النصارى لبس خاص .. ويخلوكم تعلقوا صليب كبير.

صمتت الأم فواصلت هجومي:

- ساعات لما النصارى يبقوا في موقف ضعف يتمسكنوا ويبدأوا في شريط «الله محبة».. لكن لما يتمكنوا يبقوا ألعن من بن لادن.

اتهمتني والدتي بالجنون، طلبت من أبي التدخل، ولكنه تجاهلها.

أوقف النقاش أو الجدال مجيء مريم منكسرة ذليلة، هرعت إلى حجرتها باكية، لحقتها ولكنها أبت أن تفتح لي، صرخ الأب حين سمع طلب زوجته لي أن أتركها، وأنها سوف تهدأ بعد حين:

- حرام عليكي.. حد يبقي عنده الملاك ده ويعمل فيه كده؟!

انسحبت إلى حجرتي، بدا لي ولأول مرة أن هناك صدامًا بين والدي، تركت الحلبة للفارس الجديد، أبي.

جاءني والدي بعد ساعات، قص لي عراكه من والدتي، قص لي طلب مودي من مريم بالهجرة، اتفق أبي ومريم على أن تمثل دور الغاضبة، وأننا أنا ووالدي سنحمل لها الطعام سرا، حتى نضغط على أبله الناظرة لتصلح علاقتها بمودي.

استمعت واستمتعت بحديث والدي، هذه أول مرة أشعر بوجود أب لي في هذا المنزل، وما أجمله من شعور! ورغم أنني تعديت الأربعين إلا أنني كنت في حاجة إلى دور الأب في حياتي، يمنحني على الأقل الرأي والمشورة.

اجتمعت سرا مع أختي، وطلبت منها مثل والدي الهدوء والتفكير فالقرار مصيري، يجب التفكير به مئات المرات، دون اعتبارات انفعالية، بل عليها التفكير بطريقة عقلانية فقط، أحببت أن أغير لهجة الحديث الجدي:

- تعرفي يا مريم .. أنا سعيد باللي حصل.

- ليه بقى؟

- أول مرة أشعر بوجود أبوكي.

لم تستطع مريم التعليق، نزلت دمعة من عينيها وهمست وكأنها تحادث نفسها:

- يا ريت حسينا بوجوده من زمان.

-17-

شنورة

عندما تزوجت نظيرة طالبها أبونا أن تطيعني كما أطاعت سارة إبراهام، ولكنها للأسف استغلت طيبتي، وطغت على شخصيتي، وألغت دوري في المنزل.

جلست أفكر في حال أسرتي، ونتيجة تربية أبله الناظرة لأولادي، ابن ملحد، يتنقل بين النساء دون مراعاة لأي شيء، وهرة جميلة ينهار حلمها أمامي وأنا عاجز عن فعل شيء لها.

دائما ما تتخذ هي القرارات، حتى وإن كانت ضد رغبتي، الوحيد الذي وقف في وجهها وقال «لا» ابني مرقص، فقد صمم على دخول الطب بعدما كانت تخطط له الناظرة دخول الهندسة ليصبح مثلي، فقد كنت وكيل وزارة وتلاميذي في كل الهيئات، وكانت تخطط أن أوظفه في إحداها، أصر في بداية شبابه على عدم الانتظام في الكنيسة، كنت غاضبًا منه في ذلك الوقت لتجرئه على معتقداتنا، وإصراره على

السخرية من الدين، ولكنه صمم وواصل طريقه، اعتقدت الناظرة أن الأنثى ستعيده إلى حظيرة الإيمان فرشحت له بنت أختها نانسي كعروس، اعتقدنا فترة أنه سوف يرتبط بها ولكنه أعلنها في وجه أمه ووجه نانسي أنه لن يتزوج.

أشك في أن علاقة خاصة نشأت بينهما، فقصص مرقص الغرامية انتشرت حتى أصبحنا حديث الناس مسلمين ومسيحيين، وأنا لا أرتاح لنانسي رغم محبة أبله الناظرة الشديدة لها، فمسلك نانسي ينبئ عن أشياء تخفيها رغم ما تدعيه من تدين، أرجو الرب أن أكون مخطئا، وما زادني دهشة وشكا تدخل مرقص ونانسي معا في إقناع دميانة زوجتي بالموافقة على مودي.

مودي شاب مهذب، وأمامه مستقبل جيد، ولكنني لم أرتح إلى ارتباطه بملاكي الصغير مريم لاختلاف العقيدة، وقمت ببعض المحاولات الأولية لإقناعها بذلك، ولكنها أصرت، وإصرارها عليه أذهلني وراقني.

استنجدت اليوم بمرقص بعد مشكلة نعش سمير، لعنه الرب، فهو سبب المشاكل، واستمتعت اليوم بمنطق ولدي وحديثه لأمه، والحقيقة استمتعت بهزيمة زوجتي، ومما سرني رغم المشاكل أنني اليوم صرخت في وجهها، أجبرتها على الصمت، كانت دهشة من جرأتي عليها، الغبية لا تدري أن أولادي أعز ما أملك، بل إن حبي

لأولادي فاق حبي لديني.

طلبت مستعطفا من مريم أن تسمح لي بالدخول، فرق قلبها لي كعادتها، دخلت لأراها باكية متشنجة، طلبت منها الهدوء، قصت علي ما حدث، كان ردي عليها جعلها تتوقف عن البكاء:

- معاه حق يا بنتي يفكر كده.

لم تستطع مريم أن ترد، وانتظرت مني أن أكمل حديثي، استكملت شجاعتي التي بدأتها اليوم في الصالة:

- مفيهاش حاجه لما تسافري معاه أمريكا.

- بابا!

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي استطاعت أن تنطقها مريم:

- أمك دي أصلها ما تتطقش .. أنا صبرت عليها كتير.

أول مره تبتسم مريم بعد حادثة النعش، طلبت منها الهدوء والتفكير:

ـ يا بنتي دي حياتك وأنتي حرة فيها.. إحنا ماضي خلاص .. لكن إنتي ومودي مستقبل.

صمتت مريم فواصلت حديثي وأكدت موقفي:

ـ فكري يا بنتي بالراحة .. وتأكدي إن اللي إنتي عاوزاه هاعملهولك غصب عن عين أمك.

-18-

موري

لا أدري لماذا تركتها ترحل بمفردها، هل أهرب من دموعها؟ أم أنا لا أريدها أن تبكي خوفا عليها؟ احترت ولم أجد سببًا لفعلتي.

قدت سيارتي بدون هدف، كنت تائها في شوارع القاهرة كما لو كنت في الصحراء أجري وراء السراب، أردت أن أصفي ذهني وأن أرتب أفكاري، لم أتفاجأ برد فعل مريم، فلقد كنت أتوقعه، ولكن ما فاجأني رد فعلي أنا، شعرت بالضيق والارتباك، ماذا لو أصرت مريم على رفض الهجرة، هل أتركها وأهاجر بمفردي.

أنا أكره أمريكا، لا أدري لماذا؟ فأنا لم أعش الفترة الناصرية لأرث كره الأمريكان، فعندما جئت إلى الحياة كانت أمريكا ماما وبابا للقيادة المصرية، ربما حديث أحمد المتواصل معي عن دور الإدارة الأمريكية في دعم الأنظمة العربية الرجعية، وعن دور الشعب الأمريكي الذي لا يرى إلا ما تحت قدميه، كثيرا ما ردد أحمد: «هذا

شعب استهلاكي.. كل ما يهمه التأمينات والعلاج.. لا يهتمون بالشعوب الأخرى.. بل لا يعرفونها».

أرى في الأفلام الأمريكية دعاء دائما ما يصيبني بالغثيان: بارك الله أمريكا، وكأن الله مسئول فقط عن أمريكا، تذكرت أيضا حديث صديقي لي عن أمريكا:

ـ دي البلد الوحيدة اللي الحكومة فيها اسمها الإدارة، عارف ليه يا مودي؟

ـ ليه؟

ـ لأنها فعلا إدارة زى أي إدارة لشركة، مش حكومة، عبارة عن مندوبين لشركات أمريكية وشركات متعددة الجنسيات.

ـ مش أحسن من القيادة السياسية الحكيمة اللي عندنا أيام مبارك والرئيس المؤمن أيام السادات ودلوقتي الشيخ مرسي؟!

ـ الاتنين زفت.. بس للأمانة أحسن طبعا .. بس الأحسن حكومة تيجي من الشعب .. تحس بيه وتخدمه.

ـ وده فين ده؟!

كما أن حديث والدي الدائم منذ أن كنت صغيرا عن العبقرية الأمريكية والحل الأمريكي والدور الأمريكي والسياسة الأمريكية مما جعلني أكره هذا الكيان، كان والدي كثير الفخر بالبروتستانتية الأمريكية التي تحكم العالم، وزاد كرهي لأمريكا حين اختطفت

شقيقتي الوحيدة إليها، كم أنا بحاجه إليها الآن، أحتاج رأيها، وعطفها، نعم والداي موجودان، ولكن لانا أقرب إلي على الأقل بحكم السن والتفكير، كانت ستتواصل مع مريم ووالدتها، والدتي لا تستطيع القيام بهذا الدور، لانا يمكنها أن تتنازل على الأقل ظاهريا في سبيل سعادتي، لا أنسى شكاوى لانا في بداية الهجرة من المجتمع الأمريكي، التعصب ضد العرب حتى ولو لم يكونوا مسلمين، الحياة السريعة، السباق من أجل المال، عدم وجود صداقات حقيقية في هذا المجتمع، كانت لانا شخصية اجتماعية محبوبة، أثارت هجرتها حزن كثير من أصدقائها، والذين ما زالوا يسألون عليها، افتقدت لانا هذا كله في بلاد العم السام، مما زاد غضبي تجاه أمريكا.

لم أعرف كيف وصلت إلى الكورنيش، كيف أتيت إلى هنا، لا أدري، ركنت السيارة وقررت أن أتمشى، نعم .. أنا بحاجة إلى أن أرى الناس في هدوء بعيدا عن صخب الشوارع، كان العشاق يملأون المكان، تقطع عليهم خلوتهم تدخلات الباعة الجائلين.

ابتسمت لعدم وجود شرطة الآداب، ولو كان أحمد هنا لقال:

ـ البلد محتقنة سياسيا، والأمن مستنفر كله سياسيا.

بالطبع لا يوجد وقت للأمن أن يطمئن على أخلاق العشاق، جلست على دكه وجدتها بصعوبة، لاحظت أن أحد الباعة يراقبني، بدا لي أنه ينتظر حضور حبيبتي، فلأجعله ينتظر.

قارنت بين مرقص وأحمد، كلاهما يواجه، وكلاهما شجاع، مرقص اعترف بالخطية وكأنه فعل شيئا عاديا، أما جرأة أحمد فأعرفها منذ أيام مبارك، تساءلت :

«ماذا لا أكون مثلهما»؟

تنهدت، عادت بي الذكريات عندما احتضنتني الناظرة، حين قمت بإطعام مريم، ليت تلك الأيام قد استمرت، انتبهت على صوت شجار بين أحد العشاق وأحد البائعين حول سعر زجاجة المياه الغازية، ناديت البائع الذي كان يترقبني فجاءني مهرولا:

ـ أؤمر يا باشا .. ساقع؟

هو لا يبيع إلا المياه الغازية، فلماذا يسأل؟ غريب أمر الشعب المصري، الفهلوة في طبعه، لم تكن الزجاجة مثلجة إطلاقا، ولكني مسكتها بحرص، وتناولتها على مهل، لا أدري لماذا؟

واصل قطار الذكريات طريقه السعيد، فوصل بي عندما ذهبنا جميعا بحثا عن شقة، احتارت مريم في الاختيار، طلبت هي السؤال عن الأسعار حتى تحدد ما تختار، اعترضت والدتي:

– حبيبتي .. إنتي اختاري اللي عاوزاها .. ميهمكيش الفلوس.

كان الجو وديا للغاية، كانت الناظرة سعيدة ومبتسمة وحائرة أيضا مثل ابنتها، الشقة الأولي بجانب شقة مريم، ولكن العمارة قديمة، والشقة الثانية بجانب مدرسة مريم ولكن مساحتها أصغر، الشقة

الثالثة بعيدة نسبيا ولكنها ذات مستويين وفي عمارة جديدة وفخمة، مازال العمال يركبون المصعد، اختارتها مريم مترددة:

- دي أحسنهم.

أكدت السيدتان حسن الاختيار، سعدت باتفاق الجميع على الشقة، فها هي آماله بدأت تتحقق، وقال بفرح:

- خلاص هامضي العقد بالليل لما اقابل صاحب العمارة.

دعوتهم جميعا إلى الغداء ابتهاجا بهذه المناسبة، تناقشنا في إعداد الشقة وتجهيزها:

- يالله بقى شوفوا أنتوا عايزين تفرشوا إزاي.

- إنت مستعجل يا باشمهندس؟

لم أستطيع الرد على حماتي، منعني الخجل، ولكن أدركتني والدتي:

- طبعا لازم يستعجل .. حد يبقي خاطب القمر ده وما يستعجلش.

رقصت الفرحة في قلبينا، فأول خطوة عملية في إعداد عش الحب قد انتهت، ولكن السماء كانت تخفى الكثير في جعبتها، دق هاتف الناظرة، وتغير وجهها إلى الأسي، وأعلنت لهم خبرًا غير سار:

- الأستاذ سمير في العناية المركزة.

- ليه يا طنط؟

- جات له أزمة قلبية.

اضطرنا إلى أن نفض هذا الجمع الجميل، فسمير ليس فقط مديري،

بل ابن خال حماتي، لم يقطع مرض سمير الصحبة الطيبة فقط، بل أجل موعدي مع صاحب الشقة، أيضًا كان علي اصطحاب حماتي لزيارة ابن خالها، فمرقص ليس لديه وقت، ومريم لا تجيد قيادة السيارة، فكنت أذهب يوميا مع حماتي لأوصلها إلى المستشفى وأعيدها للمنزل مرة أخرى وكأنني سائق خصوصي، تناست الناظرة كل هذا، إلى أن طلبني سمير في يوم أسود.

انتبهت على صوت البائع، استعاد زجاجته وطالب بثمنها، نظر لي البائع نظرة غيرة ودية وكأنها اعتراض على السعر لكنه واصل طريقه ولم يبد اعترضا بالقول.

عدت تائها في شوارع القاهرة بالسيارة إلى أن وصلت سالما إلى المنزل.

-19-

نانسي

لا أري أي مشكلة، لا أفهم سر تمسك زميلي مودي بمذهبه رغم أنه غير متدين، إنه خلافا للخال سمير، الذي فوجئت كنيستنا ذات يوم بإعلان ارتداده، قررنا أنا وخالتي والقمص أن نعيده إلى حظيرة الإيمان، نعم هناك لحظات تختلط فيها الرؤية على الإنسان فلا يعلم أين توجد مصلحته، أو يفقد طريقه، ويتوه في زحمة الهرطقات الشائعة ويجب علينا حينئذ مساعدته.

حاصرناه، ضغطت خالتي على زوجته، تارة بذهب المعز وتارة بسيفه:

– بناتك مش هايتجوزوا ... والشباب الإنجيلي مش هيرضوا بيهم .. ولا شبابنا .. وبعدين ممكن حد من شبابنا يتهور عليكم.

وضغطت عليه أنا في العمل بالكلام المتواصل، وبضغطي على زملائي المسيحيين المؤمنين بتجنبه، أثمرت جهودنا وطلبت زوجة

سمير الطلاق لتغيير المذهب، يومها بكى سمير كالأطفال أمامنا جميعا؛ أنا ومودي وأحمد، وقال لنا: «لقد أكدت لها أن تغيير إيماني لن يؤثر على علاقتي بأسرتي» .

فهمت أن نقطة ضعفه بناته، فجعلنا زوجته ترحل مع بناته، وفر لها أبونا حجرة في بيت للراهبات، جن جنون سمير، طلب مقابلة البنات فرفضنا، ولكن أبونا وافق، جلس معه ساعة حتى عاد إلى كنيستنا.

وعندما جئت العمل لأعلن انتصارنا وعودة الحق، وصفني أحمد بهولاكو، أعتقد أنني سأغضب وأثور ولكن ما أجمله من وصف! نعم أنا هولاكو في سبيل الرب.

راقبت سمير فترة حتى أتأكد من خلاصه من الأفكار الشيطانية، كنت أخشى أن يكون سمير يسايرنا فقط، حاسبته إذا قصر في أداء واجبه الكنسي، ثم أحضر أبونا لابنته الكبرى عريسا، ولكن اللعين كان يخدعنا.

شككت دائما لكثرة استدعاء سمير لمودي وأحمد بحجة العمل، كون أحمد شيوعيا طمأنني، ولكني أعترف أني قصرت، كان يجب أن أنتبه لمودي، وأغلق للشيطان طريقا لقلب سمير.

مريم حزينة بسبب موضوع دفن سمير، لماذا لا تساعدنا مريم على إقناع مودي ليكتمل إيمانه؟ لقد ادعت أنها تحبه، فكان أولى بها أن

تساعده على العودة لطريق الخلاص، ولكن مريم مختلفة عن والدتها، إنها أقرب إلى أبيها؛ سلبية ضعيفة برغم خدمتها في الكنيسة وإيمانها، وليست مثل مرقص.

آه ، أوحشني هذا اللعين، كم أشتاق إليه!

-20-

موري

«كان لازم تناديني يا عم سمير»؟

قلتها في نفسي وأنا مستلق على سريري أفكر في حالي، طلبني سمير في يوم مشئوم للذهاب إليه للأهمية، انقبض قلبي، طلبت من صديقي أحمد أن يذهب معي، اعترض:

- يمكن عاوزك فى حاجة سر.

ولكنه ذهب معي بعد إلحاحي، طلب الطبيب عدم الحديث كثيرا، كان قد أعاد سمير إلى غرفة العناية المتوسطة، فقد زال الخطر مؤقتا.

كان إحساسي بالخطر صادقا، طلب مني سمير طلبا غريبا:

- أمانة عليك يا مودي لما أموت.

- بعد الشر على حضرتك.

- مفيش وقت .. ماتقطعنيش .. لما أموت ادفني معاكم.

- إزاي؟

- تصلوا علي في كنيستكم .. وتدفنوني في مقابر الإنجيليين .. أنا إنجيلي.

صمت، لم أجد كلاما لأقوله، رغم كثرة الأفكار في رأسي، نظرت إلى أحمد وزوجة سمير، شاور سمير لزوجته:

- إنتي شاهدة يا تريزة.. وما تخافيش .. أنا خلاص بموت.

تأتي الممرضة لتأمرنا بالخروج من الحجرة، وقبل أن نعود إلى العمارة، اتصلت بي مريم لتبلغني بوفاة الأستاذ سمير، أسوأ نبأ في حياتي.

عرضنا أنا وأحمد ما حدث على والدي، كان النقاش سخيفًا وغبيًّا، كانت والدتي هي البادئة:

- يا عيني عليه.. لازم تنفذ وصيته يا مودي.

- إزاي يا طنط؟

- إيه المشكلة يا أحمد؟

- هايعمل مشكلة مع أهل خطيبته.

- وهما مالهم؟

- مالهم إزاي؟ ده لما غير مذهبه قوموا الدنيا ومقعدوهاش إلا لما قلهم إنه رجع في كلامه.

تدخل والدي بصوت هادئ وقد جسد دور الحكيم:

- معاك حق يا باشمهندس .. بس دي وصية ميت.

- والمثل حضرتك بيقول الحي أبقى من الميت .

استجمع أحمد شجاعته مدافعا عن موقفه وعن حبي لمريم:

- وهي هاتفرق يدفن بالطريقة دي ولا دي .. هو ربنا مش عارف هو مات على أي دين؟

ليتني أنصت إلى صوت أحمد، صوت العقل، ولكنه الغباء والتطرف كما قال هو حين انفرد بي في حجرتي:

ـ أبوك وأمك زي حماتك .. بس على ناعم!

دافعت عنهما، ولكنه واصل هجومه وربط بين قضيتي وقضيته بشكل غريب:

- الأشكال دي مش بس يحكمها مرسي .. لا .. دي عاوزة الظواهري وبن لادن.

قالها وخرج أحمد بعدما قررنا أن ننفذ وصية الأستاذ سمير، كانت حجة والدتي:

- حرام نسيبه يدفن زى الوثنيين.

سمعنا أصواتًا عالية آتية من شقة أحمد، والدته فتحت باب الشقة:

- البلطجي بيتشاكل مع أمه وأخوه.

أردت أن أصعد لهم، ولكنها وقفت أمام الباب وهي خائفة:

- ده ممكن يموتك علشان يخش الجنة!

-21-

محمد

أعلم أن أمي تحب أخي أكثر مني، لا أدري السبب، مع أنه شيوعي، وأنا أحافظ على شرع الله وأجاهد في سبيله، ولكنها أمي، أمرنا الله بودها، حتى وإن كانت على الشرك.

نجح شقيقي بأساليبه الملتوية أن ينال قلبها، ولكن صبرا جميلا، لقد كاد أخوة يوسف له، ولكن الله نصره في نهاية الأمر، لأن الله لا بد أن ينتصر لذاته ولعباده المخلصين في نهاية الأمر.

أعلم أنه لن ينصت لي، ولكن لا بد من الذهاب، حتى أكون قد أبرأت ذمتي، سأقصي من يقف في سبيلي للجهاد حتى وإن كان أخي.

دخلت الحجرة فوجدته يناقش أصدقاءه على الفيس عن الاستعدادات للمظاهرات ضدنا، ضد الإخوان ومكتب الإرشاد، قال مرحبا:

- محمد .. أهلا .. تعال.

- لا أهلا ولا سهلا .. أنا جاي أقولك كلمتين علشان اخلص ضميري.

أشرت إلى جهاز الكومبيوتر ناصحا:

- المظاهرات اللي انتم بتستعدوا ليها مش هتتم.

- هاتقبضوا علينا؟

- للأسف اللي فى الداخلية خونة .. لكن أي حد هايقرب من مكتب الإرشاد هيموت.

- إنت جاي تهددني.

- أنا جاي أحذرك .. برضه اسمك أخويا.

- كتر خيرك.

جاءت أمي على صوت النقاش ولم تسمع إلا المقطع الأخير من أحمد:

- بتهدد أخوك بالقتل يا محمد.

فرددت عليها بحسم لأنهي أي جدال عقيم:

- وابني لو كان من الكفرة.

وأنا في طريقي للخروج أبلغتهم:

- على فكرة أنا اتجوزت .. ومصعب جاي في الطريق.

نعم وجب علي إبلاغهما، حتى يعلما إن استشهدت أن لي ذرية، حتى يصلا رحمي.

لست خائفا من الغد، فأنا واثق بإذن الله في النصر، وهذه المجموعة التافهة من الشيوعيين والفلول والنصارى سيذهب جهدها هباء بإذن الله، أما باقي الشعب فنعلم كيف نسوسهم، فهم متدينون حتى وإن اعوج إيمانهم، ونعلم كيف نقودهم، وعندما نمتلك مفاصل الدولة العميقة، يجب علينا تغيير أشياء كثيرة، استعد يا شعب مصر، الإسلام الصحيح قادم، الإيمان الصحيح قادم، الأخوة قادمون وبإذن الله منتصرون.

-22-

أحمد

تركنا محمد في حيرة، انهارت أمي بالبكاء، وهي تقول:

ـ لا أدري أي ذنب اقترفت حتى يعاقبني الله، ولدي الأصغر يهدد بكري بالقتل بدون سبب.

ـ ده حتى تجاهلنا وماعملناش قيمة وراح اتجوز .

لم أدر ماذا أفعل لتهدئة والدتي، فنجدني حضور مودي ووالدته، حاولت والدة مودي أن تهدئ من روع أمي.

– كلام .. بكرة ربنا يهديه.

وجهت أم مودي كلامها لي:

– وأنت يا ابني .. بلاها مظاهرات.. أمك مش ناقصة.. قول له يا مودي.

أقنعت والدة مودي والدتي أن زواج محمد قد يجعله ألين وأهدأ في أخلاقه، فالمرأة كعادتها تنجح في تسكين غضب الرجال، ولكن أمي

لم تقتنع:

ـ أكيد اللي أخدها واحدة منهم .. يعني هاتشجعه على العنف.

صمتت والدة مودي، لم تجد جوابا، ركعت وصلت حتى يحل السلام على منزلنا، وصلت والدتي بجوارها.

اختليت بمودي في حجرتي، كلانا قص ما عنده، غضبت من أفعال مودي:

- حرام عليك مريم .. والله ما تستهلش منك كده.
- سيبك من مريم دلوقتي .. خلينا فى مشكلتك.
- أنا معنديش مشاكل.
- والدتك مقهورة برة.
- ده أكيد.

حاول مودي أن يثنيني عن الاشتراك في مظاهرات الغد، ولكن موقفي الحاسم جعل مودي يصمت :

- خلاص النظام قرب يوقع .. وتهديدهم ده دليل على خوفهم.

استأذنت مودي بإبلاغ الرفاق ما حدث، صمم الثائرون على إكمال النضال، وحشد المظاهرة وليكن ما يكون، لم تنم والدتي هذه الليلة، ولم أنم أنا أيضا.

أخيرا جاء صباح صعب على الجميع، حتى مصر، هب شبابها الثائر أمام مكتب الإرشاد بالمقطم يهتف:

- يسقط يسقط حكم المرشد.

لم يكن كلام محمد تهديدا فارغا بل كان واقعا ملموسا، رأينا القناصة داخل مكتب الإرشاد، بينما وقف شباب الدكتور بديع خارج المقر بجميع الأسلحة من كلاشينكوف ومسدسات وأسلحة بيضاء وجنازير وزجاجات مولوتوف، قامت حرب حقيقية وغير متكافئة بيننا وبين والإخوان، بينما وقف أفراد الشرطة على بعد مائتي متر كالعادة يشاهدون ولا يتدخلون، فالشرطة تريد حربًا ينهي فيها بعضنا على بعض دون أن يفوز أي طرف، فهي ليست مع المرشد وإخوانه، لقد اعتادت القبض عليهم وإطلاقهم حسب الهوى السياسي، وهي أيضا لم تنس أننا الثوار الذين أذلوها في يناير واضطروها إلى الفرار والاختفاء وترك الشارع دون أن يمارسوا سلطتهم المطلقة والمعهودة.

زاد الكر والفر، تسلح الثائرون بالحجارة بالإضافة إلى بعض الأسلحة البيضاء التي كانت في حوزة بعضنا، ورغم ضعف أسلحتنا وقلتها بالمقارنة بما لدي الطرف الآخر، وبالرغم من التنظيم الجيد للإخوان وكثرة أعدادهم، إلا أننا استطعنا أن نوقف شباب الدكتور بديع، بل جعلناهم يهربون، فانطلق الرصاص في الهواء للتحذير، وانطلق صوت من داخل المبني:

- إلا مكتب الإرشاد .. اقتلوا الكفرة.

ثم بدأ القناصة عملهم، وعاد بعض البلطجية من شباب المرشد، دافعوا باستماتة وكأنهم يدافعون عن الحرم الشريف، سقط قتلي من الجانبين، ولكن أغلب القتلى والجرحى من الثوار بفعل رصاص القناصة، كنت أنظم الصفوف، حاولت أن أهدئ الآخرين حفاظا على الأرواح فالمعركة غير متكافئة، أمسكت الميكرفون من علا زميلتي لأعلن:

- سلمية سلمية.

-23-

علا

تناول أحمد الميكرفون من يدي، وبعد أقل من دقيقة وجدتني فجأة أحميه من السقوط، أغرق دمه قميصي بعد أن أصاب صدره رصاص القناصة، صرخت في وجه هاني:

- خللي البوليس ولاد الكلب يجيبوا إسعاف.

طلبت من أحمد أن يفتح عينيه، وأن يقاوم، لمحت أخاه محمد في أحد شبابيك المكتب يراقب أخاه، أعرف محمد جيدا منذ أيام يناير، أخيرا تعطف رجال الدولة وأحضروا سيارة الإسعاف، قبل أن يدخل أحمد السيارة طلب مني إبلاغ مودي ليبلغ والدته، قال لي باسما:

ـ أصل أمي ما لهاش في المحمول.

انسحبنا لعلاج الجرحى، مرددين هتافات تهدد بالعودة والقصاص.

طالما زرت أحمد في شقته، كانت الأم تعتقد أني حبيبته، إلى أن

اكتشفت في يوم ما ارتباطي بزميل آخر فقالت لي مداعبة:

ـ خسارة والله .. أصلك جدعة .. وأنا بحبك زى بنتي.

ـ ربنا هايديه أحسن واحده في الدنيا.

ـ أنا عارفه حظ ابني وحش.

بكيت، مال هذه الإسعاف اللعينة بطيئة! صرخت في السائق، فقال بنفاد صبر:

ـ إنتي مش شايفة الزحمة، أعمل إيه؟ أطير؟!

ضغط أحمد على يدي كي أهدأ، حاولت أن أتماسك، نعم سقط زملاء لي كثيرون شهداء في سبيل الحرية وفي سبيل الوطن، لكن لا أستطيع تخيل فقدان أحمد، نظرت إليه وقلت بين دموعي:

ـ أرجوك لا تتركنا .. وواصل معنا مسيرة الحرية.

كنت أعتبره أبي، هو من طورني وأدخلني عالم النضال والماركسية، وجدته أخا حنونا في المواقف الشخصية، وصلدا قويا في المواقف السياسية، استمديت إيماني منه بسقوط مبارك، وباستمرار الثورة.

أخيرا وصلنا المستشفى، الحمد لله وجدنا زملاء لنا من الأطباء فأدخلوا أحمد حجرة العمليات.

-24-

موري

كنت في طريقي إلى مبني السفارة الأمريكية للسؤال عن الأوراق المطلوبة عندما دق محمولي، ظهر رقم أحمد، وإذا بصوت علا يجيبني ليخبرني بإصابة أحمد، سألتها:

- إنتم رايحين فين؟

- القصر العيني.

قدت السيارة، فكرت هل أذهب للاطمئنان على أحمد أم أذهب إلى شبرا لإحضار والدته، كلمت أبي، فأشار علي بالذهاب إلى المستشفى، سيلحق بي والدي مع السيدتين.

سرحت بفكري، ولم أنتبه أنني أسير في الاتجاه الخاطئ، انتبهت على صوت كلاكس قوي، لم أنتبه إلى السيارة القادمة من الاتجاه الآخر، كدت أن أصطدم بسيارة أخرى، سارع الطرف الآخر:

ـ اصحي يا حمار!

في المستشفى وجدت لامبالاة غريبة ممن سألتهم، كلهم أشاروا لي بأيديهم إلى الداخل دون أن يتكلفوا عناء الرد علي، دهشت:

«هذا المصاب كان يدافع عنكم أيها الحمقى.. بل كان يدافع عني أيضا».

أصابني الدوار والحيرة، المصابون كثر، ماذا أفعل؟

ناداني هاني زميل أحمد من بعيد :

- باشمهندس مودي.

هرعت إليه، أبلغني هاني أن أحمد في غرفة العمليات، القلق والغضب على وجوه الثوار أصدقاء أحمد، أصابني خوف شديد من احتمالية فقدان صديق عمري.

انزويت جانبا، لا أدري ماذا علي فعله لإنقاذ أحمد، لم أستطع إلا الدعاء، سألتني علا:

ـ فين والدة أحمد؟

طلبت والدي وعلمت أنهم في الطريق إلينا.

-25-

نظيرة

أبلغنا مودي بخبر إصابة أحمد، طلب زوجي إخبار والدة أحمد إلى أن يحضر سيارة أجرة، كانت مهمة شاقة وعسيرة، لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي في وجه جارتي المسكينة، صرخت أم أحمد:

- كان قلبي حاسس من أمبارح يا أختي.

- المهم نهدى وننزل نطمن عليه .. هو طلب يشوفك .. وده معناه إنه كويس.

طمأنتها هذه الكلمات قليلا، سرعان ما نزلنا الدرج، ذهبنا بالسيارة الأجرة، ننطلق إلى المجهول، طلبت من السائق الإسراع، أنا أم وأعلم ما في قلب جارتي من ألم.

احتضن مودي والدة أحمد، كانت تعرف أغلب الموجودين من زملاء أحمد، لأول مرة أتعاطف مع الثوار، إنهم خيرة شباب مصر،

يفدوننا بدمائهم من أجل التطهر من خطيئة الإخوان، صليت في سري أن يحفظهم الرب وينصرهم، صليت للرب أن ينجي ابنه مخلصنا أحمد، تذكرت مريم، من الواجب إبلاغها، طلبتها على المحمول، لأبلغها بالحدث:

- شكرا يا طنط إن حضرتك بلغتيني .. أنا جاية على طول.

انتظر الجميع أمام غرفة العمليات، كل العيون مصلتة عليها، تترقب أي همس يأتي من جهتها، سألتنا والدة أحمد :

- أتأخروا كده ليه؟

لم نجد إجابة شافية لها، التزمنا جميعا الصمت، وأخيرا خرج الطبيب والإجهاد يكسو وجهه، اشرأبت الوجوه تجاهه:

- آسف يا جماعة .. الرصاصة هتكت الرئة والنزيف كان شديد .. البقية في حياتكم.

صرخت أنا ووالدة أحمد، الذهول على الوجوه، انتاب الثائرين نوبة بكاء حادة، الكل احتضن والدة أحمد، صممت أن ترى ابنها، حاولت أن أمنعها ولكني فشلت، خرجت الجثة من حجرة العمليات، ارتمت جارتي عليها صارخة، أصيبت علا بإغماءة ولم يهتم بها أحد، كان نحيب والدة أحمد موجعا للجميع، حتى للعاملين الذين لم يعرفوها رغم أنهم معتادون على منظر الموت، إلا إن منظر أم أحمد أثار تعاطفهم:

- ولدي الحنين .

- سايبني لمين يا غالي؟

لم أدر إلا وأنا أشاركها النواح، ناح معنا كل الحاضرين؛ شبابًا وشابات، رجالا ونساء، عرفوا الفادي أم لم يعرفوه، حتى الطبيب بكى معنا.

حضرت مريم وشهقت عندما رأت المنظر، بكت بحرقة، احتضنتنا أنا وجارتي، المصيبة لي أيضا، لقد كان ولدنا أحمد عزيزًا على الجميع، بحثت مريم عن مودي فلم تجده، سألتني عنه:

- فين مودي يا طنط علشان أعزيه؟

ولكن كنت في حالة لا تسمح لي بالإجابة.

تداركت مريم الموقف:

ـ أنا هاطلبه على المحمول.

ولكنه لم يرد، بحث زوجي أيضا عنه، أراد أن يساعده في إنهاء الإجراءات، تطوع هاني بالمساعدة مع باقي زملائه.

أمام المستشفى اعترض طريقنا أحد مراسلي قنوات التلفزيون، اتهمت أم أحمد الإخوان وابنها بقتل ابنها:

- ايوة أنا بتهم د. مرسي رئيس الجمهورية بقتل ابني .. أحسن بكرة يطلعوا يقولوا أحمد إخوان.. وكمان باتهم ابني محمد إنه أداة القتل .

الآن فقط علمت من أين استلهم المرحوم أحمد شجاعته وخلاصه، وجدت نفسي أهتف بحماس مع الثائرين:

ـ بالروح بالدم .. نفديك يا شهيد!

ـ بالروح بالدم .. نفديك يا شهيد!

-26-

مريم

لم أشاهد مودي في جنازة صديقه ولا عزائه، قلقت عليه، رغم اعتقاد الجميع أنه لم يستطع الحضور بسبب حزنه عليه، الكل سأل عنه، ولكن والدته رغم طمأنتها لي إلا أن كلامها كان يشوبه القلق:

- أصل كان روحه فيه .. الله يرحمه.

- الرب هايحرسه ويرجعه.

طاف الثوار بنعشه ونعوش الشهداء الأربعة من الثائرين في ميدان التحرير، حاول بعضهم أن يذهب إلى المقطم ولكن الأغلبية العاقلة رفضت، كانت الشعارات تخرج من الحناجر مدوية، دهشت عندما رأيتهم ينشدون أغاني قيل لي إنها لشخص يدعي الشيخ إمام:

«بحبك بحبك .. بحبك يا مصر».

كما غنوا لنفس الشخص:

«مصر يامه يا بهية.. يا أم طرحه وجلابية».

سألت أخي مرقص الذي سار معنا في الجنازة، بل وحضر العزاء كاملا رغم كرهه لواجبات العزاء، فقد كان يحترم أحمد مثلنا وإن اختلف معه:

- إيه اللي بيعملوه ده؟

- دي زى الترانيم عندكم .. بس دي يسارية.

لم أضحك ولم أبتسم، فالجو السائد هو الحزن والغضب، طالب الثوار بالقصاص، نددوا بسلبية الشرطة، واتهموا الإخوان بالقتل.

بكيت لحال والدة أحمد، فحالتها يرثي لها، السطح مليء بمحبين لأحمد، لا أعرفهم، ناهيك عن سكان الشارع، طالبتها علا أن تتماسك، فولدها شهيد:

- أحمد مات علشاني وعلشانك ..لازم يا أمي تبقي فخورة بيه.

أبكتني هذه الكلمات، وزادت من بكاء والدة مودي، حضر محمد إلى العزاء، هذه أول مرة أراه، حاول أن يأخذ وضعه كشقيق للمتوفى، ولكن ما إن علمت والدته بحضوره، حتى نشبت أظافرها في عنقه، وكالت له الضربات، ثم جرت وراءه حاملها نعلها صارخة فيه:

- أنت اللي قتلته .. الله يلعنك ويلعن اللي معاك.

بالكاد خلص الموجودون محمد من والدته، مالت نانسي علي وعلى والدتي عندما بدأ صوت القران من المسجل:

- هو إحنا علينا ذنب نسمع قرآن .. يلا بينا يا خالتي.

لم أرد ولكن والدتي نهرتها، فهي وإن كانت لا تريد الإنصات إلى القرآن، إلا أن الموت له جلاله ويجب احترامه، خاصة إذا كان الميت شهيدا دافع عن حق الجميع في الحياة والحرية، فهو كان يحارب الإخوان والتي تراهم بالطبع أعداء، بالإضافة إلى أنها تحترم والدة أحمد، تشعر أنها طيبة، تختلف كثيرا عن آلاف المسلمات التي تعاملت معهن، خرست نانسي بعد كلام والدتي، فقط قطبت جبينها احتجاجا على سماع القرآن.

غريب أمر نانسي، قالت لي سابقا عن المرحوم:

ـ شيوعي بس جدع .. يا ريت كل المسلمين زيه!

حاول بعض من زميلات أحمد أن يبتن مع والدته ولكنها رفضت:

- لازم أتعود أني لوحدي.

- كلنا أولادك يا طنط.

- شكرا يا علا .. بس روحوا .. كملوا اللي ورآكم .. علشان دم أحمد مايروحش هدر.

طلبت من والدة مودي أن تزكيني أنا أيضا لمواساة هذه السيدة الجليلة، لم أنس أبدا فرحتها لنا وإطلاقها للزغاريط وكأن الخطيبين ابناها، ولكن أم مودي ردت بحسم:

ـ ما تخفيش عليها يا بنتي .. دي بمية راجل .. روحي إنتي.

ـ إبقي طمنيني على مودي.

ـ ضروري.

-27-

موسى

كنت دائما أحب هذا الشاب، أعجني كفاحه، اعتزازه بنفسه دون تقصير منه في أداء واجباته إزاء عائلته، شجعت ولدي مودي على المزيد من الارتباط بصاحبه، حتى وإن جرفه في تيار السياسة، لا أدري لماذا تخاف نظيرة والمصريون السياسة، يتكلمون عنها وكأنها خطية، دعوت الرب أن يسكن روحه الجميلة، وأن يصبر والدته، هذه السيدة المكافحة العظيمة.

لم ينم مودي في المنزل، ولم ننم نحن أيضا، وعندما بدأت الحياة في الشارع اتصلت بمرقص:

- معلش يا ابني قلقناك .. بس أنا مش عارف أعمل إيه.
- يمكن راح لحد من أصحابه يا عمو.
- مكنش ليه صاحب إلا أحمد.

انهمرت الدموع من عيني، ولم تتوقف نظيرة عن البكاء، طمأنني

مرقص:

- ما تقلقش يا عمي .. أنا هاسأل عليه في المستشفيات والأقسام.

جزعت نظيرة عندما سمعت حديث المستشفيات، ولكني طمأنتها.

دق جرس الباب.. كانت أم أحمد قادمة لتسأل عن مودي رغم حزنها على ولدها:

ـ المفروض إحنا اللي نجيلك يا أم أحمد.

ـ إنت ناسي إن مودي ابني برضه يا باشمهندس.

كنت أريد أن أحتضنها لأخلاقها السامية، نابت عني زوجتي في ذلك، شاركتنا أم أحمد القلق والبكاء، ودق جرس الباب للمرة الثانية بعد نصف ساعة، كان الجرس شديدا، هرولنا جميعا لفتح الباب، اعتقدنا أنه مودي، وإذا بها مريم، حضرت لتكون معنا، أخبرها مرقص باختفاء مودي، احتضنت السيدتين:

- مودي ما جاش؟

- لا .. وما نعرفش عنه حاجه يا بنتي.

- أنا ماشفتوش من المستشفى، وموبايله مقفول من ساعتها.

- كان هناك .. بس مشي .. اختفي بعد خبر الوفاة.

انطلقت زوجتي في البكاء بعد هذا الحوار وشاركتها والدة أحمد، تنبهت لشيء:

- عربيته هناك .. عند المستشفى .. أنا هاروح هناك.

- أنا جاية معاك ياعمو.

ذهبت مع مريم إلى المستشفى، وجدنا السيارة مركونة من اليوم السابق، سألنا أمن المستشفي هل شاهد أحد صاحب السيارة، وصفت مودي لمن أسأله، أخيرا وجدنا فرد أمن تذكره:

- أنا شفته إمبارح لا مؤاخذة يا حاج كان ماشي متوه وبيطوح زى اللي ضارب بانجو.

- متعرفش راح فين يا ابني؟

- لا والله يا حاج.

عدنا خائبين، تركنا السيارة فمريم لا تقود، وأنا لم أقد منذ زمن لضعف النظر، كان لدينا أمل أن يكون مودي قد عاد إلى المنزل، ولكن لا يبدو أن هناك شيئا جديدًا.

-28-

مريم

اتصلت بمرقص، ما زال يبحث عنه، سأل في مستشفي شبرا العام وفي المستشفيات الخاصة، وفى القصر العيني وكلم أحد أصدقائه من رجال الشرطة:

- هاسأل عليه في المشرحة.

صرخت :

- المشرحة؟

قام الجميع فزعا على صرختي، حمدوا الله وشكروا الرب أنه اقتراح وليس خبرًا، لم أتمالك نفسي، أخذت الدموع تنهمر من عيني دون إرادة مني، حاولت أن أتماسك ولكني فشلت، حضنتني حماتي:

- تعالي يا بنتي خشي أوضته .. ريحي فيها شوية.

استجبت راغبة لطلب حماتي، كنت أريد الدخول إلى عالم مودي

الخاص.

فوق السرير برواز لصورة مودي وأحمد وهما يبتسمان في ميدان التحرير وسط الجماهير الغفيرة، وبجوارها صورة أخرى لهما وهما أطفال بالزى المدرسي، لم أستطع أن أمنع دموعي وأنا واقفة أتصفح صور مودي، رأيت صورتي على الكوميدينو بحوار السرير، جلست على مكتبه، رأيت رسما لي على ورق أبيض وتحت الرسم كتابة (حبيبتي الوحيدة سأعثر عليها ولو سافرت بلاد العالم)، كان التوقيع: مودي، مؤرخا بتاريخ 2/ 12/ ، 2011، تصفحت كراسة مذكراته، قرأت قصتنا معا، لم أستطع الصمود فلست مقاتلة، أخذت في الصراخ بطريقة هيستيرية، حضر الجميع مهرولين، وما إن رأيتهم حتى أصابني الإغماء، رفعتني السيدتان إلى السرير، شعرت بهما، أحضرت والدة مودي كولونيا، أفقت، طمأنتني والدة مودي:

- ماتخفيش يا بنتي .. مودي راجع.

ـ أنا خايفة يا طنط عليه.

ردت أم أحمد بثقة وحسم:

- هيرجع يا بنتي .. أنا قلبي حاسس إنه هيرجع .. وقلبي عمره ما كدب علي.

حبست والدة مودي دموعها، أمسكت بالصليب المعلق على

صدري وأخذت أدعو السماء بعودة مودي سالما، كما صلا والدا مودي وهما واقفان يدعوان الرب بأن يحفظ وحيدهما، وسجدت أم أحمد لتدعو الله أن يعيد مودي إلينا.

دق جرس الباب فجرينا جميعا تجاهه، جريت رغم تعبي أملا في عودة الغائب ولكن الطارق كان جمعًا من نساء الشارع؛ مسلمات ومسيحيات أتين لمواساة أم الشهيد وللسؤال عن مودي الغائب.

تنهدت بعدما اختليت بنفسي وعدت إلى حجرة مودي وساءلت نفسي:

ـ الحياة تسع لنا جميعا، كان لازم يا ماما الدفن على طريقتكم!

صليت ودعوة الرب والعذراء.

ـ يا يسوع احفظه من كل سوء.

ـ يا عدرا ردي مودي ليا.

عدت إلى منزلي خائبة، لم أكلم أحدًا، حتى والدي، مرت أربعة أيام وكأنها دهر، تجنبتني والدتي، قدم والد مودي بلاغًا باختفائه، لا تبدو هناك بادرة أمل، إلى أن دخل والدي فرحا حاملا المحمول:

ـ مرقص لقي مودي وعمك رايح له دلوقت.

هرولت لأخذ المحمول من يده لأكلم مرقص:

ـ في القسم!

ـ بيعمل إيه هناك.

ظابط صديق لمرقص عثر عليه، بعد أن أبلغ زملاءه في أغلب الأقسام، وردية شرطة قبضت عليه لعدم امتلاكه بطاقة الرقم القومي، ولقيامه بحركات غريبة وتفوهه بكلام غريب، طلبت من مرقص أن أذهب معهم فوافق.

ـ شكرا يا يسوع .. شكرا يا عدرا.

-29-

موري

خرجت من المستشفى دون أن يشعر بي أحد، سرت بلا هدى في شوارع مصر المحروسة، أحسست بالاختناق عند سماع خبر موت صديقي، وأصابني الذهول، همت على وجهي لا أدري أين أذهب؟ ولم أدر من أنا؟

لا أدري كيف وصلت إلى الإسكندرية! وضعوني في الحجز، إلى أن أتى والدي مع مريم ومرقص، أحضر أبي جواز سفري، أفهم الضابط الظروف، كان الضابط سيحيلني إلى مستشفي المعمورة للأمراض النفسية، أكد له والدي أنهم سيعتنون بي، حاولت مريم في السيارة أن تتجاذب معي أطراف الحديث، ولكني تجاهلتها، لم أرد عليها، حاول مرقص بخفة ظله أن يتواصل معي ولكن لم تكن لي رغبة في الحديث، التزمت الصمت واحترم الجميع صمتي، الجميع يعلم معاناتي.

سألت والدي ونحن على أبواب القاهرة:

ـ ماما وأم أحمد كويسين؟

ـ نشكر الرب .. أنا ما رضيتش أجيبها علشان عارفة مش هاتتحمل الموقف.

ـ ابقى طمنها.

ـ ليه .. إنت مش راجع معانا؟

ـ لا.

أخبرته أنني سأقيم في بنسيون أو فندق فترة، أوصلوني إلى القصر العيني، قدت سيارتي، سار مرقص ورائي للاطمئنان علي، القلق باد على وجه والدي، والدهشة والجزع لاحظتها على وجه مريم.

سكنت في أحد بنسيونات وسط البلد، كان والدي يريد أن يبقى معي، طلبت منه الانصراف بحجة النوم، وطلبت منه إحضار ملابس لي:

ـ أنت هاتقعد كتير هنا؟

ـ مش عارف.

استلقيت على السرير لأفكر في ما حدث، كنت قد أفقت من ذهولي وشرودي وأنا في الحجز ولكني قررت السكوت وعدم الالتجاء لأحد، لماذا؟ هل أريد أن أعاقب نفسي؟ لم أجد أجابة.

سألت نفسي:

«لماذا أحيا؟ أين قضيتي؟«

عانيت كما عانى المصريون في أيام مبارك ولكني لم أكن مثل الغالي، لم أقاوم، اكتفيت بالمشاهدة على طريقة جحا (مادام بعيد عني)، واكتفيت بمقت النظام فقط،، لم أكن شخصية تواجه، ولم أكن صاحب موقف في الحياة.

تذكرت محمد أخا الفقيد، يهاجمني تارة ويبتعد عني فأتجنبه، يتقرب إلي الشيخ أيام الثورة فأستجيب دون مناقشة أسباب الهجوم والابتعاد، لا مع محمد بل ولا حتى مع نفسي، أفعالي ردود أفعال ولست البادئ أبدا.

ابتعد الشيخ عني مرة أخرى عندما دان بدين الإخوان فتحاشيته مرة أخرى.

«أنا نكرة .. صفر كبير»!

كنت أكره الإخوان، ولكني خشيت المشاركة في أي فعالية ضدهم كأي مسيحي خائف، كنت أبرر لنفسي الأعذار، فأنا من أقلية داخل أقلية في مجتمع تمت عسكرته وتهميشه من يوليو 52 كما وصفه الغالي.

حتى الدين لم أحسم أمره، غير مقتنع بما يقولونه لي في حصة الدين وفى الكنيسة، ولكنني أضعف من أن أتخذ موقفًا، حتى مديري لم أقف معه في حياته أو في مماته، لم أفعل شيئا له عندما أجبرته نانسي وعصابتها على الرجوع لمذهبهم، ولم أستطع أن أحمي جثمانه في موقعة

النعش.

حتى المنزل كنت أجبن من أن أذهب إليه حتى لا أتذكر أحمد، ولكن هل أستطيع نسيانه، الإنسان من النسيان، ولكن أحمد من الشخصيات التي يصعب نسيانها عندما تتعامل معه، مناضل، صديق، رجل، طيب، حنون، كيف أنسى إنسانا مثل هذا؟

صوت أحمد يرن في أذني، وصورته وهو يناقش، وصورته وهو غاضب، وصورته وهو يبتسم لا تفارق خيالي.

فكرت في الانتحار إذا لم أتغير وأواجه، إما أن أكون بشرا سويًّا أو....

فكرت في مريم، هل أستمر في مصر أواجه حماتي، أو أكمل إجراءات الهجرة لأبدأ من جديد في مجتمع وصفته بجهنم من قبل، ولكن جهنم أمريكا ولا جنة مصر.

نعم سأتحول إلى آلة، إلى ترس في آلة، سأهتم فقط بملذاتي، لن يعينني الآخرون، ولكن لن يسألني أحد عن ديني، أو لماذا لا أذهب إلى الكنيسة، سأتزوج أي امرأة مهما كان دينها، حتى ولو كانت مسلمة ما دامت رضيت.

ولكن يجب أن أعترف أن خياري الوحيد كان مريم، بحثت عنها حتى وجدتها، وارتبطت بها، ولكني تعاملت مع أمها ونانسي مثلما تعاملت مع محمد، رد فعل فقط.

» يجب أن تقاوم يا مودي».

«يجب أن تكون أنت البادئ بالفعل».

«بل يجب حتى أن تكون الظالم ولو مرة».

«قاوم .. قاوم .. قاوم».

قمت وقد قررت أن أتغير، سأعود إلى المنزل الآن، دفعت حساب البنسيون وقدت سيارتي عائدا إلى شبرا.

-30-

موسى

لم أكن أدري ماذا أفعل، مودي لم يعرفنا في البداية، لم أغضب منه، ولكني حزنت على خطيبته، حاولت أن تنتزع منه أي همسة، ولكنه تجاهلها تماما، شعرت بها، طالبتها بالصبر فالمصاب أليم حتى بالنسبة لها ولي، فما بال مودي وقد كان أحمد صديق عمره، حتى مرقص شارك معي في تهدئتها:

- أوعي تزعلي يا مريم .. مودي باين عليه تعبان.

- ده مش بس مكلمنش .. ده محسش بوجودي يا مرقص.

تدخلت شارحا ومبررا:

ـ معلش يا بنتي .. الصدمة شديدة عليه، إنتي متعرفيش أحمد بالنسبة له كان إيه.. كفاية أقولك هم أصحاب من قبل ما يروحوا المدرسة.

ـ أنا مش زعلانة منه يا عمو .. أنا خايفة عليه.. ده ماحسش بينا

خالص.

ـ الأيام كفيله بيه يا بنتي.

ـ ولازم تصبري وتساعديه يا مريم.

ـ صح يا دكتور .. دورك مهم جدا يا بنتي علشان يرجع مودي تاني.

ـ تفتكر إنه ممكن يرجع يا عمو؟!

لم أجد إجابة، أنقذني أننا وصلنا المنزل، ثارت نظيرة علي، كيف لم أحضر مودي، ساعدني مرقص مرة أخرى، شرح لها حالة الذهول التي عانى منها مودي، لم تتمالك والدة المرحوم أحمد وبدأت في البكاء، تلتها زوجتي، ثم مريم، الكل بكى لسبب في نفس يعقوب.

نجحت في تهدئة الجميع، كان يوما شاقا، علي أن أنهيه لأستريح، وجهت الحديث إلى نظيرة:

ـ بكرة روحي معايا.

- لسه هاستني لبكرة.

ـ حضري له اللي طلبه.

ثم أدرت وجهتي إلى مرقص ومريم:

- تعبناك يا دكتور مرقص.

- علي إيه حضرتك.

- هاتيجي معانا بكرة يا مريم؟

ـ بلاش خليه لما أعصابه ترتاح.

ذهب الجميع، وبينما كنت على وشك الذهاب إلى النوم، فاجأتنا أم أحمد لتخبرنا بوجود مودي فوق في شقتها.

لم أصدق أذني، رغبت زوجتي في الصعود لأعلي للاطمئنان على ولدها:

- هو قال هينام يا أم مودي .. بس عاوزة تطلعي تشرفي.
- إيه رأيك إنت يا موسى؟
- سيبيه للصبح.
- أنا خايفة يتعب من أوضة المرحوم.

اتفقت معها والدة أحمد:

- معاكي حق .. تعالي باتي معايا علشان لو حصل حاجة نبقي جنبه.

استشارتني نظيرة :

- أكلم مريم ولا بلاش؟
- بلاش لما يعوز يكلمها هو يكلمها.
- البنية صعبانة عليا.
- وها نعمل لها إيه؟ تستني لما يهدا ويروق.

-31-

أم أحمد

عندما صعدت إلى أعلي، رأيت طيف شخص، ظننته اللعين محمد، تهيأت إلى معركة معه، عندما اقتربت صحت بدهشة:

ـ مودي!!!

حضنني باكيا، لم أرد أن أزيد تعبه، فقد علمت لتوي حالة الشرود التي يعانيها، فقلت له بحسم:

ـ ما تبكيش.. صاحبك مات شهيد.. والشهيد بيزفوه مش بيبكوه.

كفكف مودي دموعه، دخلنا إلى الداخل، اعتذر لي عن عدم حضوره الدفن والجنازة، أبلغته أن الرفاق وأهله قاموا بالواجب، وأنني أعلم محبته للشهيد، سألته:

ـ إنت مرحتش بيتك ليه؟

- حضرتك عاوزني أمشي؟!

ـ لا ما أقصدش .. بس والدتك قلقانة عليك.

فاجأني بأنه يريد أن يتناول العشاء معي، وفاجأني أنه لم يذق الزاد منذ أيام:

ـ حاضر يا ابني .. دقايق وأحضره.

ـ بعد إذن حضرتك .. أنا اللي هاحضره.

صمت، وبعد تردد قال لي:

ـ وكمان هبات في أوضة المرحوم.

وجدتها فرصة لإبلاغ أهله، استأذنته أولا، وقررنا أنا ووالداه أن تصعد معي والدته.

بعد دخوله حجرة المرحوم، جلسنا أنا ووالدته في الصالة، اتكأنا كل منا على أريكة، لم نذق طعم النوم، حاولت أن أجعل والدة مودي تنام، ولكني فشلت.

خشيت على مودي من تأثير حجرة المرحوم، فكنت أقوم لأطمئن عليه من بعيد وفي حذر تام، في كل مرة يتكرر سؤال والدته:

ـ في حاجة؟

ـ اطمني هو نايم وكويس.

-32-

موري

شعر بحركات السيدتين في الصالة، فأنا لم أستطع النوم، نمت على سرير محمد، الذي طالما نمت عليه بجوار صديقي، كأنه موجود، أرى طيفه يبتسم لي على السرير المقابل، طيف أحمد في كل مكان يحاصرني، ولكنني قررت الاستمرار في المقاومة، أغمضت جفوني وقررت النوم رغما عن الطيف، ونجحت قليلا.

اجتمعت مع والدي صباحا لأخبرهم بقراراتي الجديدة، المقاومة والهجرة، سوف أستقيل وأهاجر إلى أمريكا، لأبدأ من جديد، اليوم سأبدأ استكمال الأوراق، شرحت لهم تأثير وفاة أحمد علي، الهجرة ليست حزنا عليه، ولا غضبا من حماتي، هي حياة جديدة، اعترض والدي:

- أنت قلت هاتقاوم.

- مينفعش أقاوم في بلد بيموت فيها أحسن البشر .. الأفضل إني

أبدأ من جديد.

- طيب ومريم؟

- هاروح لأهلها واشرح لهم.

ذهبت إلى العمل، تجمع الزملاء حولي، واسوني، عزتني نانسي، حاولت استبقائي ولكني رفضت، قدمت الاستقالة، والدهشة على وجه نانسي.

كلمت مريم، طلبت موعدا معها ومع باقي أسرتها، طمأنتها على نفسي في عجالة، كانت محادثة مختصرة، لم أسمح لها بالحديث، فالكلام غير ضروري بالنسبة لي، اتفقنا على أن تتصل بي مريم بعد مراجعة أهلها.

اتصلت بشقيقتي عندما عدت إلى المنزل، وحزنت جدا على أحمد الذي كانت تعتبره شقيقها مثلي تماما، ولكنها سعدت أنني سوف آتي، شرحت لي كيفية التعامل في التقديم الإلكتروني، طلبت مني طلبا أربكني:

- متجيب بابا وماما بدل ما يتبهدولوا لوحدهم.

تذكرت كلام مريم حول واجب رعاية الأهل، عرضت عليهم الأمر ولكنني واثق من أنهم لن يسافروا، ماما مرتبطة بوطنها، بل وبالشارع والجيران والشقة، وبابا يدرك أننا سننشغل عنهما في أمريكا، وكان رد والدي قاطعا:

- لو حصل لحد فينا حاجة هنا هانلاقي اللي يساعد.

لم أخرج من حجرتي، جلست على اللاب توب، بدأت القراءة عن الحياة في أمريكا، وعن الجزء الغربي منها حيث تقطن أختي، كما شاركت في مواقع لتحسين اللكنة الإنجليزية، لتكون مقاربة للكنة الأمريكية، طلبتني مريم:

- مرقص مش فاضي إلا يوم الجمعة.

- خلاص هاجيلكم يوم الجمعة الساعة 6.

- مش هاشوفك قبل كده؟!

تهربت منها، كنت في سري آمل أن ترفض مريم السفر لأتنصل منها وأفسخ الخطوبة، دهشت في قرارة نفسي من هذا التفكير، مريم اختياري، وكان تبريري أنها سوف تصطدم حضاريا لو سافرت إلى بلاد الكاوبوي، فلمريم رصيد ضخم من الموروث الديني، تذكرت أحمد عندئذ، فلطالما كرر صديقي كلمة الموروث الديني كثيرا، اللعنة على الإخوان وعلى السياسة التي حرمتني من صديق عمري.

عندما جاء يوم الجمعة ذهبت لرؤية عائلة مريم، كنت هادئا جدا، وكأن الأمر لا يعنيني، شرحت لهم ظروف علاقتي بابنتهم، سردت تاريخ مشاكلي مع الناظرة من أول مقابلة إلى يوم حادثة النعش، تساءلت عن عدة أشياء:

- هاتعملوا الفرح في أي كنيسة؟

قاطعتني الناظرة وقد عادت لها ذاكرة المعارك:

- عندنا مش هايرضوا.

- وحضرتك هاتقبلي يتعمل عندنا.

اعترض مرقص على الأسلوب في النقاش، ولكننا لم ننصت له، أكان جليا للأعمى أنني والناظرة نرغب في إنهاء العلاقة بسلام، نعم رغبت في ذلك ولكن دون أن أجرح أحاسيس مريم، والناظرة ناورت حتى لا تبدو سببا في الانفصال فهي لا تريد إغضاب ابنتها، ألقيت كلمة النهاية:

- أنا فكرت إن أحسن حل إني أعمل زى أختي.

- تهاجر؟

- أيوة حضرتك.

- لا يمكن بنتي تسافر وتسبني.

- القرار قراركم .. أنا مسافر بعد أسبوعين.

تدخلت مريم في النقاش لأول مرة:

- خلصت ورقك؟

- وحجزت كمان.

انصرفت وكأنني أزحت جبلا من على صدري، لم أقل لهم الحقيقة، أنني سأهاجر هربا من الدولة والمجتمع، نعم حماتي جزء من المشكلة، ولكنها ليست كل المشكلة، كم كان صديقي حكيما حين وصف

الشعب المصري بالفاشية، تذكرت كلماته:

«إحنا الشعب الوحيد اللي يطلع مظاهرات علشان يقعد عبد الناصر المهزوم في الحكم بدل ما يعدمه».

ابتسمت، انتبهت إلى الطريق، ولكن عقل أحمد يلاحقني وكأنه جن تلبس بي:

«الشعب المصري الشعب الوحيد اللي عمل ثورة يناير على نظام يوليو، وعلشان يؤكد ده راح انتخب واحد في جمعية سرية دينية، ولما ثار عليه البعض راح اتحالف مع النظام اللي ثار عليه في الأول».

قصصت على والدي مختصر ما حدث، أخذت دشا ساخنا ليزيد من هدوئي، نمت لأحلم بالسفر والحياة الأمريكية الجديدة، ولم يخل الأمر من وخزة ضمير حول ما سببته لمريم من عذاب.

-33-

نظيرة

لم نشأ أنا وموسى أن نذهب مع مودي إلى منزل مريم، فرغم أن لمريم مكانة في قلبينا، إلا أننا استشعرنا أن مقابلة اليوم هي بداية النهاية أو قد تكون النهاية، صرحت بمشاعري لموسى:

- مش عارفة يا موسى قلبي مقبوض من المقابلة دي.

- مين سمعك .

- أنا خايفه الخطوبة تتفسخ.

- أنا خوفي أكبر من كده، البنت تتعب ولا تتعقد.

زاد كلام موسى همي، نعم كرهت والدة مريم، وكرهت تعصبها المقيت، ورغم اعتراضي المكتوم في البداية على هذا الارتباط، إلا أن سلوك مريم معي ومع مودي أجبرني على احترامها، بل وعلي مودتها.

ذهبت إلى أم أحمد ألتمس منها النصيحة، وأنا مترددة وخجلى نظرا لظروفها:

- معلش أنا عارفة إن الظرف مش مناسب .. بس مش لاقية حد

يشير على أعمل إيه.

- إحنا إخوات يا أم مودي.

- دبريني؟

- سيبيه هو يختار، المرحوم قالي إنه قعد سنتين يدور عليها، لو بيحبها بجد هايقعد.

- ولو مش كده؟!

- خلاص .. خليه يبدأ من جديد.

- هايسبنا وإحنا في نهاية العمر.

- العمر الطويل ليكي .. حد عارف الأعمار؟ دي حاجة بتاعة ربنا!

صمتنا، فكرت أم أحمد كثيرا ثم واصلت بأسى:

ـ ما محمد موجود بس مش عاوزاه ولا حتى يدفني .

ـ فاهمة قصدك يا اختي.

ـ خليها على الله اللي عاوزة هايكون .

كان كلامها بلسمًا على صدري، خفف كثيرا من الحيرة، ما يريده الرب سيفعله، دعوت الرب أن يلهم ولدي القرار الصائب.

فاجأنا موسى بخبر انتحار مريم، وجدنا صعوبة في إقناع مودي بالذهاب إلى المستشفى للاطمئنان على مريم بعد مكالمة مرقص لموسى، دهشنا من سبب رفض مودي:

ـ أنا خايف يضغطوا عليا علشان اقعد وأنا خلاص قررت.

-34-
الناظرة

اتصلت بي نانسي لتبلغني خبر استقالة مودي، دهشت من هذه التطورات، أحسست أن الموضوع خطير، دهشت أكثر بعدم مفاجأة مريم بخبر الاستقالة عندما أبلغتها.

ساعدني مودي عندما جاء في إنهاء هذا الارتباط المشين، بعدما رحل حاول مرقص أن يتناقش معي بأفكاره الغريبة فصرخت فيه:

- يغور في ستين داهية .. روحة بلا رجعة.

كانت مريم قد اختفت في غرفتها، طلب شنودة من مرقص كسر الباب، فنهرتهما، ولكني كنت قلقة، شكرت الرب أنهما لم يصغيا لي، صرخ شنودة:

- م م مريم!

كانت مريم ملقاة على السرير، الريم يخرج من فمها، جرى مرقص ليفحص حالتها، وهرول شنودة إلى طلب الإسعاف.

في المستشفى، رفضت مريم مقابلة مودي، لا أعلم السبب، بل رفضت مقابلتي ومقابلة مرقص، قابلت فقط شنودة، غادرنا مودي وبقيت والدته وأم أحمد، وجاءت نانسي بعد مغادرة مرقص لعمله، ويا ليتها ما جاءت، ذكرتني بهيروديا التي حرضت على قتل يوحنا، نزلت الدموع من عيون نانسي، لا أدري لماذا لم أصدق دموعها، وطلبت مني الموافقة على سفر مريم إلى أمريكا وسط دهشة والدة مودي وأم أحمد، بثت سمًّا تجاهي وتجاه مريم:

- خلاص يا طنط .. ما دام مرتبطين كده وافقي مريم تسافر.

- قصدك إيه؟

- واحدة بتنتحر علشان واحد أنا مش عارفة أقول إيه يا خالتي .. يمكن .. سامحيني يا عدرا.

رسمت نانسي علامة الصليب كاستغفار لما لمحت به، انسحبت والدة مودي ووالدة أحمد والخجل والغضب في وجهيهما مما لمحت إليه نانسي بالتعريض لمريم ومودي.

تماسكت ولم أرد عليها، الأفكار في رأسي مشوشة، يجب علي أن أعيد حساباتي، سمعت أم أحمد وهي تهمس لأم مودي:

- أوعي تحكي لمودي الكلام الفاضي ده .. هو مش ناقص.

- على الأقل يعرف عمل إيه في البنية.

- قريبتها نانسي دي شكل الشيطان .. حد يتكلم في الأعراض؟!

- وكمان بتتكلم على بنت خالتها! ومريم دي ملاك.

- يا أختي وابننا مؤدب كمان.

رغم ارتياحي إلى هذا الحوار إلا أنني حسدت والدة مودي على صديقتها المسلمة، دافعت عن ابن صديقها المسيحي وهي المسلمة، ونانسي بنت أختي تعرض بمريم وتلمح!!!

في المنزل ثرت على مريم، قصصت على أسرتي حديث نانسي، صرخت في وجه مريم:

- فيه إيه بينك وبين مودي؟

انتابت مريم نوبات من البكاء، صرخ فيّ مرقص والغضب على وجهه:

ـ نانسي بتتكلم على مريم!! لما أشوفها.

ولسخرية القدر حضرت نانسي ولسخرية السماء مع زوجها، ليقوما بالواجب، الاطمئنان على مريم، هجم عليها مرقص وصفعها بالقلم أمام زوجها وأمامنا، ماذا فعل هذا الأحمق؟ ليته توقف عن الضرب فقط، صرخ في وجه نانسي:

- أنت بتلسني وتتعرضي لسلوك مريم!

فجر قنبلة لزوجها ولي، لم يهتم بالعواقب، ولا بالقرابة:

- على فكرة .. أنا بمارس الجنس مع مراتك.

لم يتأثر الزوج وكأنه على علم، شهقت صارخة:

- مرقص .. إنت اتجننت؟

- اسألي مريم هاتقولك إن اللي شافتها عندي يوم ما تعبت كانت نانسي.

كانت نانسي مشلولة الفكر، لم تستطع الرد على مرقص، فاكتفت بالبكاء:

- الرب يسامحك يا ابن خالتي.

كمل مرقص هجومه وهو غير قادر على كبح جماح غضبه:

ـ حتى بعد الجواز كانت بتجيلي .. أصلك ما بتبسطهاش!

ماذا أسمع؟ يا ليتني مت وكنت نسيا منسيا، خطية وكلام فاحش في منزلي، الرحمة يا يسوع، وودت أن تنشق الأرض وتبتلعني.

بهدوء أشار زوج نانسي الصامت بيده لزوجته لكي يغادرا، الوجوم ساد من في المنزل، أنا غير مصدقة، نانسي المؤمنة خطية، رأيت الشماتة على وجه شنودة، أما مريم فأخذت تصلي للرب أن يعيد الهدوء والحب إلينا، ثرت في وجه مرقص:

- إنت مش بني آدم.. لا يمكن تكون بشر.

- أنا عارف إني غلطان .. بس بنت أختك شرموطة.

- اخرس.

- كل مظاهر التدين دي فالصو .. شرموطة.

أغلقت أذني بيدي، لا أريد أن أسمع شيئا، ولكن مرقص استمر في

ترديد السباب مع اقترابه مني إلى أن صرخت مستجيرة، صرخ شنودة في مرقص:

- مرقص .. كفاية كده.

انتابتني نوب بكاء، دخل مرقص ومريم كل إلى غرفته، أنبني شنودة:

- اتعلمي واتعظي.

- مش وقته الكلام ده يا شنودة.

- لا .. وقته .. ما بنحكمش على الناس بتدينها وإلا هانبقي إخوان أو سلفيين.

- أرجوك يا شنودة .. أنا مش ناقصة.

كان الخوف والغضب قد اجتاح قلبي ووجداني، الخوف من تبعات تهور مرقص، ماذا سيكون مصير نانسي، زوجها ذو طباع هادئة جدا ولكني أخشي هذا النوع من البشر، ها هي مريم طول عمرها هادئة إلى أن ابتلانا الرب بمودي.

أردت أن أطمئن على نانسي فهي وإن كانت خطية فهي بمثابة ابنتي، كما كنت أخشى من تسرب أي كلام للناس، المجتمع القبطي مجتمع مغلق، لا أريد أن نصبح قصة في ألسنة الناس، ولكن كيف؟ لا أضمن ماذا سيقول أو يفعل زوج نانسي، قد يطلب الطلاق ويتهمها بالزنا، وقد يطلبني للشهادة أنا وأسرتي:

- ربنا يسامحك يا مرقص دايما تاعبنا.

-35-

مريم

رغم أنني كانت متماسكة في مقابلتي مع مودي، شعرت بهزه نفسية، تأكدت من أن مودي لا يريدني، وأنه جاء فقط حتى لا يلومه أحد، أحسست أن إيماني ضعف، إيماني بالمسيح وبالعدل وبالرحمة، وازددت يأسا، أحسست أن الدنيا سوداء، لا أمل في إنقاذ هذه العلاقة، تناولت دون تفكير حبوب البنادول الموجودة على درج الكوميدينو الخاص بي، رفضت إلحاح والدي لفتح باب غرفتي.

أفقت في المستشفى، رفضت مقابلة أحد سوى أبي، ففي قلبه حنان يسع العالم كله، تعتقد والدتي أن هذا ضعفًا، رفضت مقابلتها أو مقابلة مرقص، حتى مودي رفضت أن أقابله، أعلم أنه أتى فقط للمجاملة.

فوجئت بأمي تخبرني عن تلميحات نانسي، لم أرد، رد الرب على أمي وعلى نانسي، صليت بعد هجوم وكلام مرقص حتى يعود السلام لمنزلنا، وحتى لا تتطور فضيحة نانسي، هذا الإيمان الذي تعلمته من

يسوع، لا أحقاد، أحبوا أعداءكم، تناسيت مودي، هناك مشكلة أكبر الآن لها الأولوية.

أثناء صلواتي، دق هاتفي، كان مودي، وكان فقط يثبت أنه طلبني، كلامه لم يعد مثل السابق، اقتصر كلامه على السؤال عن صحتي، أبلغته برفضي السفر، وأنه حر يتصرف كيفما شاء:

- يعني عاوزة تسيبيني.

ضحكت بمرارة:

- إنت اللي سيبتني

صمتنا، أنهيت الحديث:

- بكرة هابعتلك شبكتك مع بابا.

- أعطيت الدبلة والشبكة لوالدي ورجوته أن يذهب غدا لإعطائها إلى مودي، حاول أبي أن يقنعني لإكمال مشواري مع مودي، وأن أي مشكلة لها حل، أصررت على موقفي:

- خلاص يا بابا .. أنا مش عاوزاه.

-36-

ميخائيل

أنا الزوج المخدوع، يعتقد الجميع أنني أبله، لم أكن أعرف زوجتي، رشحها لي أبونا:

ـ هاهديك هدية .. بنت ولا أي بنت .. الإيمان عامر في قلبها!

وهل يوجد أصدق من الكاهن، تزوجنا في شقتها، ليس لعجزي المادي ولكن بناء على طلبها، أسست الشقة بأجمل أثاث وأغلاه، طبيعة عملي كمهندس بترول تجعلني أحضر للقاهرة أسبوعًا واحدًا فقط كل شهر، أقضيه مع نانسي.

شككت من أول يوم أن لها تجارب سابقة، رغم الدم الكثير الذي راق عند فض غشاء البكارة، كانت طريقتها في العلاقة الزوجية ليست طريقة فتاة شريفة، تذكرت أول ليلة كنت أنا الخجول وهي من بدأت، ظننتها تحبني وتساعدني.

«يا لغبائي»!

العمل في الصحراء زادني صمتا وخجلا، ولكنه لم يقلل أبدا من نخوتي، أكيد غيابي الكثير عن المنزل سهل لها طريق الخيانة، حتى وأنا موجود خرجت كثيرا بحجج كثيرة، لا أعرف ماذا أفعل؟ يجب أن أخذ موقفًا.

نعم منزلنا افتقر إلى السعادة، ولكنه يفتقر الآن إلى الهدوء، عدنا بعد معركة مرقص، طوال الطريق تبكي نانسي وواصلت بكاءها في المنزل، دافعت عن نفسها:

ـ كداب .. ما حصلش!

ابتسمت، ودهشت نانسي كثيرا من ابتسامتي، وازدادت دهشتها عندما طلبت العشاء:

- بكرة نتكلم لما تهدي.

ـ أنا بريئة ومظلومة.

الغبية لا تعرف أنني أريدها أن تصمت لأفكر، حتى أستطيع أن أرد على اتهامات مرقص، نامت نانسي مطمئنة إلى طيبتي وغفلتي، ولكني لم أنم، تظاهرت بالنوم، تخيلتها تتلوي تحت مرقص، دقت كلماته في أذني «أصلك ما بتبسطهاش»، غلى الدم في عروقي، قررت الرد، وليكن الرد عبرة للآخرين الذين يعتدون على حقوق الغير، فالكتاب المقدس نهانا عن الخطية «لا تشتهي امرأة جارك».

وعندما كانت نانسي في نوم عميق قمت إلى المطبخ وأحضرت حبلا

ولاصقًا وسكينة، ربطتها من أرجلها في قوائم السرير، فاستيقظت، حاولت أن تقاومني، ربطت يدها، خربشتني إلا أنني شللت حركتها وتمكنت من إتمام تقييدها، الفزع ظاهر في عينيها، أشرت لها بالسكين:

- أنا عاوزك تقول لي الحقيقة من غير كدب.

تكلمت كثيرا، ولكني لم أصدقها، اعترفت أنها كانت على علاقة بمرقص قبل الزواج، فهو كان في حكم خطيبها وأنه استدرجها إلى علاقة جنسية غير كاملة، ثم أنكرت بشدة استمرار العلاقة بعد الزواج، اتهمت مرقص بمحاولة إغواءها، لم أقتنع بهذا الحديث، قطعت اللاصق لأضعه على فمها، ولوحت لها بالسكين فاستغاثت بي:

- ها أقول الحقيقة والرب.

اعترفت بكل شيء، كنت أستمع لها وكأن الأمر لا يعنيني، أو كأني كاهن الاعتراف، بكت طالبة الغفران:

- سامحيني وهابقي خدامة تحت رجليك.

واصلت بكاءها:

- بلاش تقتلني باحلفك بالعدرا.. مش هاشوف مرقص تاني.

كاد قلبي أن يلين، ولكن عقلي رفض، تحولت فجأة إلى إنسان آخر، إنسان غاضب جريح، فقط يريد أن يمحو عاره، صفعتها على وجهها وأنا أصيح:

- فاجرة .. خاينة.

أطبقت على فمها وأغلقته باللاصق، الفزع يملأ عينيها، أخذت أحرك السكين بيدي، وهي ترتعد رعبا:

- هادبحك زي المسلمين ما بيدبحوا الخروف في العيد.

انتابتني نوبة من الضحكات الهستيرية، درت حول السرير وحول نفسي، فجأة استللت السكين:

- باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد آمين.

نحرت رقبتها، تطاير الدم على وجهي وعلى ملابسي، فصلت رأسها من جسدها، سقطت رأسها بجوار الجسد على السرير، رقصت غارفا بيدي من دمائها، إلى أن انتابتني نوبة بكاء حادة، حاولت أن أهدأ، تطهرت في الحمام من الدماء وارتديت ملابس خروج جديدة، خرجت من الحجرة وأغلقت بابها، اتجهت إلى الصالون، نزعت صورة العذراء الكبيرة من على الجدران، فتحت الخزانة الموضوعة خلف الصورة، أخرجت مسدسا منها، تأكدت من وجود رصاصات به، وتأكدت من أنه جاهز للاستعمال، فأنا لم أستخدمه من قبل، لقد ساعدتني الشركة في ترخيصه، يوم أن تعرض لبعض مهندسيها وعمالها بعض الإرهابيين، تعلمت عليه وحفظته خلف العذراء، رغم أن زملائي يحملون مسدساتهم في مواقع العمل.

نمت على الأنترية تحت الصليب، سويعات وتشرق الشمس:

ـ دروك جاي يا دكتور!

-37-

الناظرة

طلب شنودة من مرقص أن يأخذه معه بالسيارة إلى منزل مودي:
- مريم هاترجع له االشبكة.
- ليه كده؟
- هي حرة.

لم أعلق، مودي هو سبب كل هذه المشاكل، أخيرا سنستريح منه، مريم ما زالت في غرفتها، انتظرت خروج الرجلين لأتصل بنانسي لأطمئن عليها، دعوت الرب والقديسين أن يمر الموضوع بسلام، نزلنا مهرولين أنا ووراءي مريم عندما سمعنا صوت الرصاص وصرخة شنودة، ارتمينا على جثة مرقص، أشاح شنودة بيده جسدي:
- ابعدي عنه .. إنتي اللي قتلتيه.

صرخ في وجوه الناس:
- اقبضوا على المجرمة دي.. دي كمان قتلته.

ولما لم يجد استجابة ممن حوله، هجم علي محاولا خنقي، مريم في حالة رعب، خلصني الناس من شنودة بصعوبة، انتابت شنودة نوبة ضحك وأخذ يحادث الجميع، وعيناه تبرقان بشكل غريب، تارة يضحك وتارة يبكي، يصرخ بصوت عال:

«كان لازم أطلقها زى المسلمين».

«لا .. كان لازم أقتلها».

«هي السبب ..هي السبب».

علمت فيما بعد أن ميخائيل كان مترصدًا لمرقص، مختبئا وراء شجرة، وعندما شاهد مرقص وشنودة وهما يتجهان إلى السيارة، أسرع بالاقتراب منهم، نادى مرقص:

- دكتور مرقص.

التفت مرقص تجاه الصوت، عاجله ميخائيل بست رصاصات، سقط مرقص على الأرض، وصرخ شنودة.

لم يحاول ميخائيل الهرب، ألقى بمسدسه، واستسلم للموجودين، علمت أيضا أنه ذبح نانسي.

-38-

موسى

كانت زوجتي تتحدث في التليفون مع إحدى أصدقائها، لا أدري لماذا تابعت الحديث، قد يكون إحساسي، وقد تكون طريقة زوجتي في الاستجابة للمتكلمة:

ـ حصل امتي الكلام ده؟

– ماتت؟!

– وهو مات.

– أبوه في مستشفى المجانين.

أبلغتني نظيرة بما حدث، قتل زوج نانسي زوجته ود.مرقص، ووالد مريم في المصحة النفسية:

– أنا رايح لهم .. بلغي مودي.

– أنا جاية معاك .. نكلم مودي وإحنا في التاكسي بالمحمول.

لم يحضر أناس كثيرون في عزاء د.مرقص، فقط بعض من زملائه،

وبعض المعارف والجيران، نشرت الصحف الخبر «زوج يقتل زوجته وعشيقها»، وقف مودي معي متململا وسائلا:

ـ متى ينتهي هذا الهراء؟

أشرت عليه بالصمت، فأنا حزين لما حدث، حزين على مرقص وعلى والده، بل وأيضا على نانسي.

قمت بجميع ترتيبات الجنازة والعزاء والدفن، وكأنني فرد من العائلة بعد أن تهرب أقارب المتوفى حتى لا يوسموا بذنب مرقص.

ذهبنا أنا ومودي للمنزل لتقديم العزاء للناظرة ولمريم، أقنعت مودي بالذهاب بصعوبة:

ـ أنا خايف من خطوة العزا.

ـ الواجب واجب يا ابني.

سألت عن مريم، التي رفضت الخروج لتقابلنا، مودي قال للناظرة وكأنه أراد عدم خروج مريم :

– سيبوها براحتها .. هاتهدي مع الوقت.

-39-

أم أحمد

في منزل مريم حيث عزاء السيدات كان عددهن أيضا قليلا، لم تستطع مريم الجلوس معنا وانهارت بالبكاء وذهبت إلى غرفتها، رغم محاولاتي أنا ووالدة مودي أن نقنعها بالجلوس مع المعزيات، ولكنها رفضت باكية.

فاجأت صديقة للناظرة، وهي نحيفة جدا، فكرت أن ليس لديها وقت لتناول الطعام، وأن وقتها قد خصصته فقط للحديث، وتشرق عينيها بالفضول:

- هو إيه اللي حصل يا اختي؟

لم تجد الناظرة شيئا لتقوله، فواصلت الصديقة هجومها:

- صحيح اللي سمعناه ده؟

لم أستطع السكوت:

- يا اختي إنتي جاية تعزي ولا جاية تسمعي حواديت.

- أنا صاحبة الناظرة من زمان وعايزة اطمن عليها .
- تطمني عليها ولا تحققي معاها؟
- إنتي مين؟ أنا مشفتكيش هنا قبل كده.
- أنا برضة صاحبتها أم أحمد.

مصمصت شفتيها وقالت لسيدة بجوارها بصوت مسموع:

- مسلمة وبتتدخل بينّا.

كان لزاما على الناظرة أن تأخذ موقفا بعد أن سمتها:

- أم أحمد مش بس صاحبتي .. دي اختي.
- كده أقوم أنا.

سررنا أنا وأم مودي من موقف الناظرة.

في منزل مودي كانت المحاولات شديدة لإقناعه بعدم الهجرة من قبلي ومن قبل والديه، قصت عليه والدته ما حدث:

- حماتك اتغيرت.
- وأنا كمان اتغيرت .. ودي مش حماتي .. أنا خلاص قلعت الدبلة.
- يا ابني الظروف اختلفت.
- وأنا كمان ظروفي اختلفت.

تدخلت:

- أحمد الله يرحمه قال لي إنك قعدت تقريبا سنتين تدور على مريم.

- الله يرحمه .. يا ريتني سمعت كلامه من الأول وما دورتش عليها.

- أنت مبقتش بتحبها؟

نظر لي مودي بأسًى، ثم نظر إلى والديه وتركنا ودخل غرفته.

-40-

مريم

استمر غيابي في الحجرة، لا أريد أن أقابل أحدا، فكرت كثيرا في الحادثة، وفي والدي، بكيت كثيرا على مرقص، وعلى نانسي.

فى الصباح الباكر ذهبت إلى والدي في المستشفى، انهرت، لم يعرفني والدي، أخذ يهذي بكلام غير مفهوم، انتابته نوبة هياج فاضطر الطبيب لإخراجي، لم يطمئني الطبيب وقال إن التشخيص حالة ذهان حادة:

- يعني إيه يادكتور؟

- يعني زى الفصام بس لسه فى البداية.

- وهايخف؟

- احتمالات الشفاء كبيرة بس ممكن يتحول إلى فصام أو اضطراب ثنائي القطب.

يصمت الطبيب لحظة ويواصل شرحه:

- المشكلة إنه كبير في السن .. ففي كمان تدهور في قدراته المعرفية.
- خرف يعني؟
- هو معرفكيش .. وساعات كتيرة بيتوه .. واضح إنه ما تحملش الحادثة.

لم أذهب إلى المنزل، أريد دواء، ولا يوجد أفضل من الكنيسة، قابلني القس معزيا، شكيت له عن إحساسي بالعار والظلم والقهر، الناس تركونا لذنب لم نقترفه، لم أعد أستطيع أن أعاود نشاطي لا في المنزل ولا في العمل:

- إيه رأيك يا بنتي .. تعتكفي شوية؟
- فين؟
- في الدير.

فكرت إذا ارتحت في الاعتكاف، لماذا لا أترك الدنيا وأزف إلى يسوع، نعم أدخل تجربة الاعتكاف ولأحكم هل أستطيع الرهبنة أم لا؟

كان النقاش عنيفا مع والدتي، فاجأتها:

- إذا عجبني الحال هاترهبن.
- وتسيبيني يا مريم؟
- معلش .. حضرتك السبب في كل اللي إحنا فيه دلوقتي.
- أنا؟ مش كفاية الفضيحة.

- الفضيحة عملتها بنت أختك اللي كنتي فاكرها مريم العدرا.. هارجع الشغل إزاي.. تقدري تقول لي؟ مين ممكن يفكر يتجوزني؟ هاكلم الناس إزاي وأتعامل معاهم؟

أجهشت والدتي بالبكاء، وقفت دون أي رد فعل مني، لم أتأثر ببكائها، وأخيرا دخلت غرفتي، وعندما خرجت اكتشفت أنها خرجت، لا أدري إلى أين ذهبت، بدأت الاستعداد للذهاب إلى الدير، أحاول أن أسقط الدنيا من عقلي، فقريبا سأصبح عروسا للمسيح.

-41-

موري

نعم حزنت على مرقص فهو مختلف عن الآخرين، ولكن ما حدث له نهاية طبيعية لرجل فاسق، عاش فقط لملذاته، لم أحزن على نانسي، فهي لا تمثل لي شيئا، أراد الرب أن يفضحها كما فعلت شرا بالآخرين.

كان من الصعب النفاذ إلى عقلي لتغيير قراري، لدي قناعة ألا مستقبل لي ولأمثالي في مصر، حاول الجميع؛ والداي ووالدة أحمد، إقناعي بالبقاء للاستمرار مع مريم، ولكني لم أنصت لهم، تذكرت كلام صديقي الراحل عن أمريكا:

- مصر بلد الموروث الديني بيلعب فيها دور كبير.
- أمريكا بلد علماني.
- معاك حق بس العلمانية هناك شاملة.
- إزاي؟

- هتتحول إلى آلة مهما كان دينك، المهم بس تجيب فلوس وتصرفها على ملذاتك ..هناك الرب هو الدولار .. مفيش حب .. مفيش عواطف .. مفيش دفء أسري.

- مش بالبشاعة دي.

- لا .. أكتر .. وإذا هتحافظ على قيمك وعاداتك هتعيش في جيتو معزول مع اللي زيك .. أمريكا مش جنة .. أمريكا جهنم.

تساءلت في نفسي عن الحقيقة، خشيت صحة كلام صديقي، عادة ما كانت تحليلات أحمد صحيحة ولكني حاولت طمأنة نفسي:

«أحمد .. الله يرحمه .. ما سافرش أمريكا .. وحتى لو جهنم برضه هسافر».

حدثت نفسي إذا كان الوضع سيئا أستطيع الرجوع، فأنا لن أتنازل عن جنسيتي المصرية، وعندها سأصبح مواطنًا «سوبر»، تحميني جنسية العم سام، ارتضيت لنفسي هذا التحليل وهذه النتيجة.

فوجئت بوالدتي تخبرني أن الناظرة بالخارج وهي تريدني لأمر هام، ماذا تريد هذه المرأة؟

- الحقني يا ابني .. مريم عاوزه تترهبن.

- تترهبن؟

- أيوة .. لازم تكلمها .. أنا موافقة على أي حاجة إنت عاوزها

.. إن شاء الله مريم تغير مذهبها وتبقي زيك.

- أنا مسافر بكرة.

تدخلت والدتي في صف الناظرة في حين صمت والدي:

- السفر يتأجل.. يتلغي.. المهم مريم.

- أنا آسف يا طنط .. مش هقدر أعمل حاجة.

تركتها ودخلت حجرتي غير مبال بها، ولا ببكائها.

كان موعد الطائرة مساء، استأذنت والدة صديقي في الذهاب إلى قبره لوداعه:

- يا ابني هايبقي صعب عليك.

- لازم أودعه يا طنط .. كفاية محضرتش دفنه ولا جنازته ولا عزاه.

ذهبت معها ومع والدي إلى المقابر، حاولت أن أتماسك ولكنني فشلت، بكيت كما تبكي النساء، وكأن أحمد توفي الآن، سمعت والدتي التي تراجعت عن معارضة الذهاب إلى المقابر قائلة لأبي:

- يمكن يلغي السفر.

انهرت تماما وهويت حاضنا القبر وأنا أصيح:

- سامحني يا صاحبي .. يارتني كنت معاك.

انهارت والدة أحمد بالبكاء، هدأنا والدي وغادرنا المقابر .

-42-

مريم

على أبواب المطار، كنت أسابق الريح لألحق مودي، ظهرت الفرحة على والدة مودي وأم أحمد، اعتقدتا أنني جئت من أجل ولدهم:

– نسيت أديلك شبكتك .. كان بابا رايح يديها لك يوم الحادثة.

أخذها مودي مني، الدهشة على وجوه الجميع، سافر مودي، وانتقلت بعد فترة إلى دير في سيناء، أحسست براحة غريبة في الدير، وجدت نفسي الضائعة فيه.

اكتسبت محبة باقي الراهبات، تركت العالم الدنيوي وشروره، ولكن من في العالم يأبون أن يتركوها، فوجئت ذات يوم وقد أمضيت في سلك الرهبنة أكثر من ثلاثة أشهر بخطاب من أمريكا، من مودي، قرأته:

(عزيزتي مريم .. أرجو أن تكوني بخير.. أبلغتني والدتي

عنوانك.. قد لا تعلمين أصبحت والدتك صديقه حميمة لوالدتي ووالدة الشهيد أحمد، أعتذر عن كتابتي لك، أعلم أنك في عالم الرب، أرجو أن تكوني سعيدة في عالمك الجديد، كتبت إليك فقط لأعتذر، سامحيني لقد أسأت لك كثيرا ، أرجو وأنت في ضيافة المسيح أن تسامحيني عن ما سببته لك من آلام، الحياة هنا أكثر من جهنم، أحاول أن أتكيف معها، أرجو لك السلامة، إمضاء مودي).

قطعت الخطاب وأحرقته بالنار، وواصلت حياتي في الدير، هاتفتني نفسي أن أعود إلى حياتي السابقة ولكنني طردت تلك الوساوس الشيطانية.

-43-

محمد

شعرت بالندم والأسى لوفاة شقيقي، حاولت مرارا أن أعيد ما بيني وبين أمي من صلة ولكنها رفضت نهائيا، طردتني، بل وأفحشت لي بالقول، حتى عندما أحضرت زوجتي وصغيري مصعب لم تحن.

اعتقدت أنني قتلت احمد، لا تعلم مركزي في الجماعة، لست صاحب قرار، كما أنني لست من القناصة، ومن غير المنطقي، أن أطلب من القناصة أو جنود الجماعة أن يحموا أخي!!!

المصريون جهلة، هذه حقيقة، يقولون لنا إن الفلول والمسيحيين والشيوعيين وراء المظاهرات ضد مرسي، ولكني كنت أراقب الغاضبين، نعم زملاء أحمد موجودون ولكن الأغلبية من جهلاء المصريين، الذي صدقوا الإعلام المغرض.

سقطت تجربة د.مرسي، ولم يسقط الحلم الإسلامي، سأذهب

لرابعة حتى نستعيد الأمل الإسلامي.

ذهبت إلى أمي قبل الذهاب إلى رابعة، سائلا منها الدعاء، ولكنها قابلتني بشماتة، حتى أنها وزعت الشربات وأطلقت الزغاريط احتفالا بسقوط د. مرسي.

لم أفهم موقفها ولا موقف الكثيرين من الشعب المصري، تذكرت كلام أحمد حين أعلن د. مرسي الإعلان الدستوري:

ـ لسه بدري على أصحابك على ما يعرفوا يحكموا.

تساءلت في نفسي:

«هل كلامه صحيح؟»

ذهبت إلى رابعة مصمما على النصر أو الشهادة.

-44-

أم أحمد

توطدت العلاقة بيننا أنا وأم مودي والناظرة، كنا كثيري التزاور، كنا بمفردنا، رغم وجود شنودة.

كانت الملايين قد خرجت إلى التحرير مطالبة بتنحي مرسي في ثلاثين يونيو، وفى يوم الثالث من شهر يوليو أعلن وزير الدفاع إقصاء مرسي، جاءت علا وزملاؤها للاحتفال عندي باعتباري أم الشهيد، بادرتهم بسؤال:

- وده كويس؟
- إزاي يا طنط؟
- طول الوقت كنت باسمع المرحوم يا علا بيحذر من العسكر.
- هم وعدونا إنه في انتخابات وإنه محدش فيهم هايترشح.
- وإنتم مصدقين؟

- مش عارفة أقولك إيه يا طنط .. إحنا عاوزين نحتفل النهاردة.. الكابوس انزاح.. لو ما صدقوش إحنا موجودين والميادين موجودة.

في نفس اليوم جاءتني والدة مودي وهي قلقة على الناظرة، ثلاثة أيام تتصل بها دون رد، قررنا الذهاب إليها، طلبت والدة مودي من زوجها المجيء معها:

- إنتوا ستات مع بعض .. أروح اعمل إيه؟

- أنا قلبي مشغول عليها .. لو كويسة تمشي مفيهاش حاجة.

ذهبنا جميعا، كان الجيران قد اشتموا رائحة عفنة بالمنزل، فأبلغوا الشرطة، كسر الضابط باب الشقة، وجدوا الناظرة جثة بالية متعفنة، وبدا وجها مذعورا، ورائحة الشقة لا تطاق، خرج الضابط سريعا، سأل الجيران:

- ملهاش حد؟

- جوزها في مستشفي المجانين .. وابنها اتقتل .. وبنتها في الدير.

كانت إحدي الجارات قد تطوعت بالإجابة، جئنا في هذه اللحظة، طلب والد مودي من الضابط:

- إحنا قرايبها وهندفنها.

- طيب .. بس عدي علي في القسم علشان أقفل المحضر.

بكينا أنا وأم مودي بحرقة ، فقد أحببناها، قالت والدة مودي:

- ربنا يقدس روحها .. كانت شديدة بس طيبة.

أرسلنا تلغرافات عزاء لمريم، ثم زرناها وعلمنا أنها علمت بالوفاة منا، خرت مريم ساجدة، صلت أمامنا بصوت عال داعية بالرحمة لأحمد ولوالدتها ولمرقص.

تمت

يأسك وصبرك بين إيديك وأنت حر
تيأس ما تيأس الحياة راح تمر
أنا دقت من دا ومن دا عجبي لقيت
الصبر مر وبرضك اليأس مر
عجبي!!!

صلاح جاهين

الفهرس

1 - أحمد 7

2 - مودي 17

3 - أم أحمد 24

4 - نظيرة 33

5 - أحمد 39

6 - مودي 44

7 - مريم 54

8 - مرقص 59

9 - نانسي 62

10 - أبله الناظرة 65

11 - مودي 68

12 - أحمد 72

13 - مريم 76

14 - مودي 84

15 - مريم 88
16 - مرقص 94
17 - شنودة 97
18 - مودي 100
19 - نانسي 106
20 - مودي 109
21 - محمد 112
22 - أحمد 115
23 - علا 119
24 - مودي 121
25 - نظيرة 125
26 - مريم 127
27 - موسى 130
28 - مريم 133
29 - مودي 137
30 - موسى 142
31 - أم أحمد 145
32 - مودي 147

33 - نظيرة 152
34 - الناظرة 154
35 - مريم 159
36 - ميخائيل 161
37 - الناظرة 165
38 - موسى 167
39 - أم أحمد 179
40 - مريم 172
41 - مودي 175
42 - مريم 178
43 - محمد 180
44 - أم أحمد 182